

جَنَّةُ الْإِيمَانِ

١٠ ينابيع تمنحك السعادة

د. هاني درغام

تقديم د. محمد علي يوسف

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع
المصنوعة - مصر

كُلُّ الْحَقُوقِ مُحْفُوظَةٌ

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التصوير وغير ذلك دون حصول على إذن خطي من المؤلف والناشر.

الطبعة الأولى
١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م



رقم الإيداع: ١٥٤١ / ٢٠٢٢ م
الترقيم الدولي: ٦-٢٩١-٩٩٧-٩٧٧-٩٧٨

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

Twitter and Facebook icons followed by @DarElollaa

Hotmail icon followed by Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 - 0502357979

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا الكتاب

- **أكتبه** .. بعدما تعرضت لمحنة شديدة تيقنت بعدها أن الله عز وجل هو المنقذ الذي لا يجد الإنسان سواه حينما يعجز عن تفريج مصابه، فلا يجدُ بدأً من أن يقول يارب .. يارب فتكون برداً وسلاماً علي قلبه .. يملؤه بالأمل ويشعره بمصدر الرحمة .. فتقوى عزيمته في مكافحة الألم والشدائد .
- **أقدمه** .. إلى من يشاق إلى سرور النفس وطيب العيش .. لذة الروح وبهجة القلب .. قرة العين وانسراح الصدر .. إلى الباحثين عن جنة الدنيا .
- **أتصفحه** .. كلما أصابني هم وضيق، واستصعبت طول الطريق .. كلما بارت الحيل وانقطعت السبل .. كلما اشتد الكرب وزاد الهم والخطب .
- **أهديه** .. إلى والدتي الحبيبة الرؤوم .. إلى النبع الصافي التي غمرتني بحبها وحنانها وضحت بأوقاتها ومالها .. وشجعتني كلما فترت عزيمتي بكلماتها ونصحها .

• **أستودعه..** ربي عز وجل الذي لا تضيع عنده الودائع ..
راجياً رحمته ولطفه .. طامعاً في عفوه ومغفرته .. داعياً إياه أن يتقبل
مني هذا الكتاب وأن يجعلني من عباده الصالحين وأن يُدخلني
برحمته مع المتقين في جنات ونعيم.

لماذا جنة الإيمان؟

إن حياتنا الدنيا هذه دار ابتلاء ومشقة ونصب، وهي محلُّ
للهموم والأحزان والأكدار، فما يسلم إنسان أبداً من هموم الحياة
وآلامها النفسية أو الجسدية، فكم يفقد الإنسان من صديق وحبیب!
وكم يتداعى على جسده من أمراض وعلل! وكم! وكم مما يطرق
الناس من أحداث على مر الأيام وكر الليالي!

وما لم يتخذ المؤمن ربه عز وجل ملجأً ومعزياً في المصائب
ومعيناً في المتاعب كان أشقى الناس في الدنيا، فالشقاء كل الشقاء
في البعد عن الله عز وجل والانحراف عن سبيله والغفلة والإعراض
عن طاعته ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا..﴾ (طه)
(١٢٤)

وقد أعجبني قول الإمام (ابن تيمية) رحمه الله :

(إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة) (١)

ثم سألت نفسي : ما الجامع المشترك بين الجنتين الدنيوية
والآخروية؟

فوجدت أنهما : السعادة والكفاية ..

السعادة مصدرها السكينة والاطمئنان وذهاب الهموم والأحزان
والكفاية تعني الاستغناء عن كل ما سوى الملك الرحمن ..

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٤٨ - الإمام ابن القيم

ولكن كيف يتحقق هذا الشعور في الحياة الدنيا ؟ ..

إنه الإيمان ..

وقبل الإيمان .. المعرفة ..

معرفة تملأ القلب إجلالاً وتعظيماً للملك عزوجل، وتحفزه على طاعته وذكره ومحبته وعبادته وحمده وشكره، فتغرس فيه اليقين، وتهبُّ عليه نسيمات الأنس ورياحين الرضا .

قصة هذا الكتاب

أصابني قبل بضعة أعوام محنة شديدة خانقة، شعرت بعدها بهم وغم كبيرين؛ حتى ضقت ذرعاً بالحياة، واسودت الدنيا في عيني، وتلونت باليأس مشاعر قلبي؛ حتى أحسست كأني أتنفس من ثقب إبرة. وظللت طوال هذه الفترة أدعو الله عز وجل وأتضرع إليه وأناجيه وأبث إليه همومي وأشكو إليه عجزتي وضعفي؛ حتى هبت نسائم الرحمة الإلهية ونفحات الأنس الربانية؛ فانقلب الهم إلى فرج، والضيق إلى سعة، والعسر إلى يسر، والحزن إلى سعادة، واليأس إلى أمل وتفاؤل(١).

في هذه اللحظات الحاسمة من حياتي عرفت الله ..

نعم .. إنني أقر وأعترف أنني لم أكن أعرف الله عز وجل طيلة العقود الثلاثة السابقة من عمري كما عرفته في هذه اللحظات .

(١) كنت قد كتبت قبل بضعة أعوام كتاباً بعنوان (جنة الحياة) تحدثت فيه عن كيفية الوصول للسعادة الحقيقية عبر رياض الإيمان، وقد وجدت بعد انتهاء الطبعة الأولى أن الكتاب بحاجة لمراجعة وتهذيب وتشذيب؛ فقممت بتغيير فكرته وعنوانه وإجراء تعديلات عبر إضافة فصول جديدة وحذف أخرى، فاسأل الله عز وجل أن يروق لكم في حُلته الجديدة.

• **وعرفت الله .. إلهًا حكيمًا عليمًا** يمتحن عباده بالشدائد
والمحن حتى يُصقل نفوسهم ويُهدَّب أرواحهم ويزكي قلوبهم .

• **وعرفت الله .. إلهًا ودوداً رحيمًا** يجيب المضطر إذا دعاه ،
ويكشف السوء، يسمع تضرع عبده إليه وابتهاله له، ويرى انكساره
بين يديه وافتقاره إلى عظمته .

• **وعرفت الله ..** فلن أئس إذا اشتدَّ الكرب، وداهمتني المصائب،
وثقل الحمل وحفت بي المكاره، وتأخر الفرج؛ لأنني في كنف وحمى
الركن الذي لا يُضام، والقوة التي لا تُرام، والعزة التي لا تُغلب .

• **وعرفت الله ..** فلن أبكي على هجر حبيب أو تخاذل قريب
أو عجز طيب؛ فقد اكتفيت بربي أنيسًا وطيبًا ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ
وَأَبْقَى﴾ (طه ٧٣)

• **وعرفت الله ..** فالحمد لله على كل نعمة أنعم بها، وعلى كل
بلية صرفها، وعلى كل أمر يسره، وعلى كل قضاء قدره، وكل مكروه
كفاه، وكل حادث لطف فيه .

سبحانك ربي .. ما أجمل القرب منك! وما أحلاه! .. إنها
الطمأنينة القلبية والسعادة النفسية واللذة الروحية.. إنها بحق جنة
الإيمان .

تقديم د. محمد علي يوسف

واحة ظلييلة ونسيم عليل يداعب الروح والفؤاد أثناء تناول تلك الوجبة المتكاملة .

ذلك هو الشعور الذي ملأ أركان نفسي بينما أطالع صفحات ذلك الكتاب الممتع الذي أهداني إياه صاحب القلم الرفيق والقلب الرفيق أخي الدكتور هاني درغام.

يقال أن للمرء نصيباً من اسمه وحظاً من لقبه ويبدو أن للكتب نفس الخاصة هو "جنة الإيمان" اسماً وعنواناً وطبيعة ومعانٍ .

أكاد أجزم بأن مطالعة هذا الكتاب الجميل والنظر في آثاره ومعانيه تصب على الروح والفؤاد من فيوضات تلك الجنة وتغمس القلب في عذب أنهارها.. أنهار جنة الدنيا التي قالوا عنها قديماً أن من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

نعم....

إن في الدنيا جنة ..

جنة يعرفها المحبون ، ويحبها العارفون، ويتنعم فيها الذاكرون الحامدون الشاكرون .

قلم الدكتور هاني يأخذ بيدك برفق ليطوف بك في نزهة بين جنات تلك الجنة الدنيوية .

وكعادته يبهرني بقدرته المدهشة على استحضار النقول كجامع
زهر مبدع في اختياره وتنسيقه لوروده ورياحينه التي قد تختلف
ألوانها جداً، لكن ذوقاً رفيعاً لجامع الأزهار يجعلها على اختلافها
تتكامل في نسق بديع لتشكل باقة رائعة .

هذا من أهم ما يميز قلم الدكتور هاني برك الله فيه .

مدارس مختلفة وتوجهات متباينة جداً لأولئك الذين يأتي
الدكتور بكلماتهم ويستشهد بمقولاتهم .

لا أنكر أنني تحفظت على بعض من نقل عنهم، لكنني في جُلِّ ما
قرأت فوجئت -بعد تحفظي- بقدره الدكتور على انتقاء الخير
واختيار النص المنضبط وكل يؤخذ من قوله ويرد .

وهكذا عهدته وكذلك عرفته دوماً .

حاضر الدليل ، سريع الاستشهاد، واسع الثقافة، منفتحاً بغير
تفريط، نهماً للقراءة من شتى الاتجاهات مع عدم تنازل بقدر وسعه
عن التفريق بين الغث والسمين . باختصار كما قلت أنفاً = جامع زهر
مبدع ذو ذوق رفيع وحس مرهف، ولقد تجلى ذلك بوضوح في هذا
المصنف الممتع الذي أرجو من الله أن يفتح له القلوب والعقول
ستكون تجربة جميلة أغبط من سيخوض غمارها ابتداءً ..
تجربة التجول في واحات هذا الكتاب وتأمل تلك الجنة التي اجتهد

الدكتور في وصفها، وجمع ثمارها، والترغيب في سكنها...
جنة الإيمان ..

أسأل الله أن يجعل الكاتب والقاريء من أهل تلك الجنة
وسكانها تمهيداً للغاية الأعظم والهدف الأسمى الذي يمر الذهاب
إليه عبر هذا الطريق ..

غاية جنة الآخرة ورضا من غرس كرامتها بيده وختم عليها ، فلم
تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر .

رزقنا الله سكنها وجزى الله خيراً صاحب هذا الكتاب الذي
اجتهد ليدل الخلق عليها وتقبل منه وجعل هذه السطور في ميزان
حسناته اللهم آمين .

مقدمة

الحمد لله على جزيل العطاء، مسدي النعماء، كاشف الضراء،
معطي السراء .

الحمد لله المتكفل بالأقوات، المدعو عند المدلهفات،
المطلوب عند كشف الكريات، المرجو في الأزماة .

الحمد لله كم أعطى من النعيم! وكم منح من الخير العميم! وكم
تفضل به من النوال الجسيم .. عمت نعمه، وانصرفت نغمه،
وتضاعف كرمه .

الحمد لله الذي نور قلوب العارفين بذكره، وأنطق ألسنتهم
بشكره، وعمّر جوارحهم بخدمته، فهم في رياض الأانس يرتعون،
وإلى أوكار المحبة يأوون، ذكّرهم فذكروه، وأحبهم فأحبوه، ورضي
عنهم فرضوا عنه .

سبحانه .. علامّ الغيوب، غفّار الذنوب، ستار العيوب، كاشف
الكروب، ميسر الخطوب، مقدر المكتوب، عظمت بركاته، حسنت
صفاته، بهرت آياته، جلّت أسماؤه، عمت آلاؤه، كثرت نعمائه .

سبحانه .. أحلى الساعات إذا ذكرته، أشرف الرتب وأفضل
القرب إذا سبّحته، أرفع المقامات وأعظم الدرجات إذا شكرته،
أنكد الأزماة وغاية الهوان إذا عصيته .

أما بعد ..

إن الحياة الدنيا لا تطيب للإنسان ولا يسعد بها ولا يستطيع أن يقوم بدوره الكامل فيها- من عبادة الله وطاعته والتقرب إليه ونيل مرضاته والشوق إلى لقائه- إلا إذا استمتع بسكينة النفس وطمأنينة القلب وراحة البال .

وطيب هذه الحياة يجيء من نفحات الإيمان، تلك النفحات التي تثلج الصدر بالطمأنينة والرضا، وتدفع النفس بالرجاء والأمل بتلك القوة التي لا حدود لها والتي منها مصادر الأمور وإليها مصائرهما ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل ٩٧)

إن من يحيا في رحاب الإيمان، ويعتصم بحبله المتين، ويستضيء بنوره المشرق، فهو يعيش حياته في رؤية واضحة، يدرك بها حكمة الله الأزلية، ورحمته بخلقه، وسنته في هذه الحياة، وقضائه النافذ، وقدرته البالغة، فتطمئن بذلك نفسه، وتصفو سريرته؛ لأنه يوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئهُ، وما أخطأه لم يكن ليصيبهُ، فلا يتسرب إلى قلبه الشك، ولا ينفذ إلى وجدانه القلق، بل يسير في دنياه بخطى ثابتة موزونة، ويسعى إلى أن يبلغ ما يصبو إليه من نهاية صالحة ومصير كريم .. فلا يرجو إلا فضل الله، ولا يخشى إلا عذاب الله، ولا يبالي بشيء في جنب الله ..

إنه قوي وإن لم يكن في يديه سلاح، غني وإن لم تمتلئ خزائنه
بالفضة والذهب، عزيز وإن لم يكن وراءه عشيرة وأتباع، راسخ وإن
اضطربت سفينة الحياة، وأحاط بها الموج من كل مكان .

وتلك بحق جنة الدنيا .. جنة تنعم فيها الروح وتسكن فيها
النفس ويطمئن القلب وتزكو الجوارح.

إنها السعادة التي لا تعدلها أي سعادة .. إنها نزهة القلب المشتاق
في بساتين وارفة الظلال يتلذذ بثمارها ويتنسم عيبرها وأريجها .

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقاءه، وفتح لهم أبوابها في دار
العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم
والمسابقة إليها.

فلو نال العبد كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم
يظفر بالإيمان بالله، والشوق إليه، والأنس به فكأنه لم يظفر بلذة ولا
نعيم ولا طمأنينة .

وما أجمل ما قاله د. عبد الله عزام (رحمه الله) وهو يؤكد هذه
الحقيقة :

(إن الروح التي هي من أمر الله، وهي صبغة الله وفطرته لا يمكن
أن تجد الراحة إلا أن تشيع، وتشيع بنظام رباني، شأنها شأن المعدة
الجائعة التي لا تهدأ إلا بالطعام والغذاء ولا يسد جوعتها ولا يؤمن
راحتها رؤية المال ولا ضجيج الإعلام، ولا هتاف المجد من أفواه

الملايين، إنما يريح المعدة الجائعة قطعة خبز تدخلها فتوقف
اعتصارها بالألم عنه .

وكذلك الروح لا يريحها قناطير الذهب، ولا وسائل الترفيه ولا
أدوات الراحة المادية، إنما يشبعها صلة بربها فتهدأ، وتفيض السعادة
منها على النفس البشرية) (١)

إن الحياة بغير إيمان ضياع وعبث، وفراغ نفسي، وخواء روحي،
وقلق دائم، واضطراب مستمر، وغرق في لجج المتاعب والأزمات،
ودخول في المعركة بلا سلاح ثم نهاية بائسة، ومصير مرير ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ
ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه ١٢٤)

أخي في الله ...

وعبر صفحات هذا الكتاب أتحدث معك - بمشيئة الله - عن
عشرة ينابيع إيمانية يتحقق من خلالها سعادة المرء في هذه الحياة
الدنيا ويتذوق من خلالها سكينته القلب، وانسراح الصدر، وقُرة
العين، ولذة الأنس .

(١) كتيب سعادة البشرية ص ٦

دعاء ورجاء :

• إلهي .. إنني أعترف من صميم قلبي أنك ربي وإلهي الذي لا رب لي سواه ، ولا معبود لي إلا إياه ، وأنت الموصوف بصفات الكمال ، المنزه عن العيوب والنقائص والمثال .

• إلهي .. أنني أقر بأنك صاحب الفضل الأول والأخير في خروجي من محنتي وانفراج أزمتي .. وأنني شعرت في أثناء هذه الأزمة بيدك الحانية ترعاني وتسدد خطاي حتى وصلت إلى بر الأمان، ولا زلت أنتظر منك يا مولاي المزيد من عطائك وكرمك .

• إلهي .. إنني أشهدك وأشهد كل الناس أنني ما كتبت حرفاً في هذا الكتاب إلا بفضلك وجودك وكرمك وأنه لولا تيسيرك وتوفيقك ما كان هذا الكتاب .. فاللهم تقبل مني هذا الكتاب واجعله خالصاً لوجهك الكريم .

عبدك الفقير الضعيف

هاني محمود درغام

إشراقه البداية

(إنه لا نعيم للقلب ولا لذّة ولا ابتهاج ولا كمال إلا
بمعرفة الله ومحبتّه والطّمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج
بقُربه، والشّوق إلى لقائه، فهذه جنتّه العاجلة، كما أنّه لا
نعيم له في الآخرة ولا فوز إلا بجواره في دار النّعيم في الجنّة
الآجلة، فله جنتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل
الأولى) (١)

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٥٤) - الإمام ابن القيم

هل يصنع الإيمان السعادة؟

(لم أر سفينة برت بصاحبها وأمنتها من العواصف الهوج
والأمواج المظلمة الصاخبة مثل ما فعلت سفينة الإيمان:
برت به في الدنيا فطردت اليأس من قلبه ، وبعثت الطمأنينة
فيه بذكر ربه ، وجعلت الأحداث تبنيه ولا تهدمه والمصائب
تُعليه ولا تُصغره) (١)

الشيخ محمد الراوي (رحمه الله)

(١) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ص ٢٠٦ بتصرف

• البحث عن السعادة :

لا يختلف اثنان أن غاية ما يصبو إليه الإنسان، هو إدراك السعادة في أعماق فؤاده، والشعور بلذة العيش وطيب الحياة.. فكده واجتهاده ونصبه كله من أجل تحقيق الراحة النفسية والطمأنينة القلبية.

ولقد جربَ الناس طرقًا شتى للوصول إلى السعادة؛ فبحثوا عنها في المال الوفير، والثراء الفاحش، ورخاء العيش، ورفاهية الحياة، والانغماس في ألوان المتع المادية وصنوف الشهوات الحسية، بحثوا عنها في الشهرة والمنصب والزواج والأولاد، والشهادات والألقاب ..

فهل حصدوا من وراء ذلك السعادة الحقيقية ؟ هل تنعموا بالسكينة القلبية والهدوء النفسي ؟ .. كلا .. (فالسعادة أنفس من أن تُشترى بمالٍ، وأسمى من أن تمتلك بجاهٍ أو سلطانٍ، وأبلغ من أن تُنال بكلماتٍ معسولةٍ، وأشعارٍ متكلفَةٍ، وأكبر من أن توجد في الولايم المدهشة، والأطعمة والأشربة اللذيذة، وأعز من أن تنال بتشديد القصور والزواج من الحسان) (١)

إن الذهاب إلى منتزه للتسلية أو إلى مباراة في الكرة ، أو مشاهدة فيلم سينمائي، أو برنامج تلفزيوني كلها نشاطات لاهية تعيننا على الاسترخاء إلى حين ، ونسيان مشاكلنا، وقد تجعلنا نضحك بالضحك ،

(١) من غراس السعادة ص ١٨ - بدر الحسين

لكنها لا تأتينا بالسعادة لأن آثارها الإيجابية تتلاشى بمجرد أن يتوقف اللهو.. وللأسئلة أن يسأل: لماذا لم تحقق هذه الأشياء السعادة المنشودة؟

أقول لكم: إن السعادة شيء معنوي لا يُرى بالعين، ولا يُقاس بالكم، لا تحويه الخزائن، ولا يُشترى بالدينار أو الدولار..

السعادة شيء يشعر به الإنسان بين جوانحه صفاء نفس، وطمأنينة قلب، وانسراح صدر، وراحة ضمير.

السعادة شيء ينبع من داخل الإنسان، ولا يُستمد من خارجه.

أتدري ما هو هذا الشيء؟ إنه الإيمان.

• لا سعادة بلا سكينة.. ولا سكينة بلا إيمان :

سكينة النفس - بلا ريب - هي ينبوع الأول للسعادة؛ ولكن كيف السبيل إليها إذا كانت شيئاً لا يثمره الذكاء ولا العلم ولا الصحة والقوة، ولا المال والغنى، ولا الشهرة والجاه، ولا غير ذلك من نعم الحياة المادية؟

إننا نجيب مطمئنين: أن للسكينة مصدراً واحداً، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، الإيمان الصادق العميق، الذي لا يكدره شك، ولا يفسده نفاق.

هذا ما يشهد به الواقع الماثل، وما أيده التاريخ الحافل، وما يلمسه كل إنسان بصير منصف، في نفسه وفيمن حوله.

لقد علمتنا الحياة أن أكثر الناس قلقاً وضيقاً واضطراباً، وشعوراً بالتفاهة والضياع هم المحرومون من نعمة الإيمان، وبرد اليقين.

إن النفس الخالية من الإيمان وأنواره، نفس مظلمة يُعشش فيها القلق، والخوف، والاضطراب، ومن دون الإيمان بالله تغدو النفس البشرية ألعوبة بيد الشيطان، يبت فيها الحزن والهم، ويغريها بارتكاب الفواحش والمنكرات.

إن في فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه إلا الإيمان بالله -جل وعلا-
(وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ، حتى تجد
الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه.. هناك تستريح من تعب، وترتوي من
ظمأ، وتأمين من خوف هناك تحس بالهداية بعد الحيرة، والاستقرار
بعد التخبط، والاطمئنان بعد القلق، ووجدان المنزل والأهل بعد
طول الغربة، والضرب في أرض التيه.. فإذا لم يجد الإنسان ربه وهو
أقرب إليه من حبل الوريد فما أشقى حياته! وما أتعس حظه!، وما
أخيب سعيه! .. إنه لن يجد السعادة، ولن يجد السكينة) (١)

فيالها من راحة نفسية وسكينة قلبية إذ تشعر أنك عبدٌ لربِّ
واحدٍ، هذا الربُّ لا يريد لك إلا الخير، فلا يأمرك إلا به ولا ينهك
إلا عن الشرِّ، تلجأ إليه في الأزمات وتدعوه في الشدائد والكربات،
تشعر بالأنس في معيته والسكينة في صحبته .

• ما الحياة بلا إيمان؟

إنَّ الإنسان خُلِقَ في هذه الحياة وَسَطَ تَبَّارِ جَارِفٍ مِنَ الْأَلَامِ
والمصاعب، تتنابه الأحداث العظام وتحل به الكوارث. فما لم يؤمن
بالله ويتَّخذه ملجأً يلجأ إليه، وركناً يعتمد عليه وملاذاً يلوذ به في
الشدائد والمصائب، ومواسياً له عند الحزن كان أشقى النَّاسِ في حياته .

(١) الإيمان والحياة ص ٨٩ - د. يوسف القرضاوي

فالإيمان بالله هو عماد الحياة الروحية ومنبع كل طمأنينة نفسية، ومصدر كل سعادة .. الإيمان هو الروح لكل فرد، بها يحيا الحياة الطيبة، وبفقدتها تموت الرُّوح، وهي النور الذي إذا عمي عنه الإنسان ضلَّ في مسارب الحياة، وتاه في أودية الضلال ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (الأنعام ١٢٢)

والإيمان بالله نور.. نور الأنس بجوار الله، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته في السراء والضراء، ذلك الاطمئنان الذي يستتبع الصبر في الضراء والشكر في السراء على نور من إدراك الحكمة في البلاء .

وهكذا .. يجد الإنسان في قلبه هذا النور، فيجد الوضاعة في خواطره ومشاعره وملامحه، ويجد الراحة في باله وحاله ومآله، ويجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها، وفي استقبال الأحداث واستدبارها، ويجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة وفي كل حين .

ألا ما أعظم الإيمان !

فلولا الإيمان لما استطاع المريض الذي يئس من الشفاء، والفقير الذي عجز عن القوت، والثكلى التي فقدت زوجها أو ابنها أن يحتفظوا بعقولهم سليمة ومداركهم صحيحة وعزائمهم متماسكة .

• الإيمان ينبوع السعادة :

(والإيمان يمنح السعادة من جهتين:

الأولى: من جهة أنه يمنعك من الانزلاق في مستنقعات الفجور والمنكرات، وهي أخطر أسباب التعاسة والشقاء، فلا شيء يضمن للمرء ألا تجرّه شهواته ورغباته إلى الموبقات إذا كان قلبه فارغاً من الإيمان بربه.

والثانية: من جهة أنه يعطيك أهم شرط من شروط السعادة، وهو الاطمئنان، ففي بحر المشاكل والأزمات لا مرساة للنجاة سوى الإيمان، فمن دون الإيمان تزداد عوامل الخوف والقلق، أما مع الإيمان فلا شيء يستحق الخوف سوى مقام الله تعالى.

فالقلب المؤمن يستهين بكل الصعاب؛ لأنه يتوكل على الله. والقلب الفارغ من الإيمان كورقة مقطوعة من غصنها تتلاعب بها الرياح الهوجاء). (١)

وحسبك دليلاً على ذلك ما حدث لسحرة فرعون، بعدما أشرقت شمس الإيمان على قلوبهم، فصحت نفوسهم بعد غفلة، ورتت قلوبهم بعد قسوة، وأقبلوا إلى الله بعد إدبار.. فانظر إليهم قبل إيمانهم، (إِنَّهُمْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ النَّاسِ الْعَادِيَيْنِ) يَتَشُدُّونَ الْمَالَ وَالغَنَى ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَأَجْرُ إِنَّا كُنَّا نَعْمُ الْغَالِبِينَ﴾ (الشعراء ٤١)، قَالَ: نَعَمْ، وَزَادَهُمْ: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الشعراء ٤٢)،

(١) كيف تتمتع بحياتك وتعيش سعيداً ص ٢٥-٢٦ - هادي المدرسي

فَأَقْسَمُوا ﴿۱﴾ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ ﴿۲﴾ (الشعراء ٤٤) ..
لَكَتَّهُمْ وفي لحظةٍ عَجِيبَةٍ تَغَيَّرُوا وَتَحَوَّلَ مَوْقِفُهُمْ إِلَى النِّقِیْضِ تَمَامًا،
تَحَوَّلُوا مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى .. وَلَمَّا
هَدَّاهُمْ فِرْعَوْنُ بِالصَّلْبِ وَالتَّقْطِيعِ، ﴿۳﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلٰی مَا جَاءَنَا مِنَ
الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا ﴿۴﴾ (طه ٧٢) . فما الذي غَيَّرَهُمْ هَذَا التَّغْيِيرَ الْعَجِيبَ، وَجَعَلَهُمْ لَا
يَأْهَوْنَ بِذَلِكَ التَّهْدِيدِ الرَّهِيبِ؟! والجوابُ: ﴿۵﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا
خَطَايَانَا .. ﴿۶﴾ (طه ٧٣) .

إِنَّهُ الْإِيمَانُ إِذَنْ .. الْإِيمَانُ: هُوَ الَّذِي يُغَيِّرُ النُّفُوسَ تَغْيِيرًا جَدْرِيًّا ..
فِيصْبِحُ الْإِنْسَانُ بَعْدَهُ مُخْتَلِفًا كَلِيًّا .. تَتَغَيَّرُ أَفْكَارُهُ وَقَنَاعَاتُهُ .. وَتَتَغَيَّرُ
أَهْدَافُهُ وَتَطْلُعَاتُهُ، وَتَتَغَيَّرُ أَخْلَاقُهُ وَتَصْرُفَاتُهُ ﴿١﴾

ما أعظم الإيمان عندما يخالط المشاعر!، ويملك القلوب،
ويأسر العقول ، ويجعل من الإنسان الفقير الضعيف، قوة هائلة
تتحدى الجبارة وتستخف بأعظم الأهوال وأشد الخطوب ، فتقف
صامدة شامخة في وجه الباطل .. تتحدى الإغراءات والتهديدات ..
حقاً الإيمان يصنع المعجزات ويقلب الأوضاع ويغير
الموازن.

(١) مقال فاقض ما أنت قاض - الشيخ عبد الله الطواله - شبكة الألوكة

والآن دعني أسألك .. هل أدركت قيمة الإيمان ؟ هل تذوقت
حلاوته؟

قل لي بربك : ماذا حصل من دنياه من حرم لذة الإيمان ونعمته؟ ..
إنه لو ملك الدنيا فسيبقى محروماً ، سيبقى قلقاً حائراً ، مضطرباً
فزعاً ، باكيًا شاكياً ، ضاقت عليه دنياه وحياته ونفسه ، فوقع في عقد
وأمرض نفسية لا تنتهي .

وما أجمل ما قاله الشيخ السعدي (رحمه الله) وهو يلخص هذه
الحقيقة :

(الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلهمهم من سرور وحزن
وخوف وأمن وطاعة ومعصية وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكل أحد
منها).

• فعند المحاب والسرور، يلجأون إلى الإيمان فيحمدون
الله، ويثنون عليه، ويستعملون النعم فيما يحب المنعم ..

• وعند المكاره والأحزان يلجأون إلى الإيمان من جهات
عديدة يتسلون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلون بما يترتب على ذلك من
الثواب، ويقابلون الأحزان والقلق براحة القلب، والرجوع إلى
الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح.

• ويلجأون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه، ويزيدهم
إيماناً وثباتاً، وقوة وشجاعة ويضمحل الخوف الذي أصابهم.

• ويلجأون إلى الإيمان عند الأمن فلا يبطرهم، ولا يحدث لهم الكبرياء بل يتواضعون، ويعلمون أنه من الله، ومن فضله وتيسيره. فيشكرون الذي أنعم بالأمن وأسبابه.

• ويلجأون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة، فيعتزون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها، وعدم ردها أو نقصها.

ويلجأون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات لجبر نقصها ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف ٢٠١) فالمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان، ومفزعهم إلى تحقيقه، ودفع ما ينافيه وبضاده (١)

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ٨٦-٨٩ بتصرف

بستان المعرفة

لا سعادة للعباد ولا صلاح لهم ولا نعيم إلا بأن يعرفوا ربهم ويكون هو وحده غاية مطلوبهم، والتعرف إليه قرة عيونهم، ومتى فقدوا ذلك كانوا أسوأ حالاً من الأنعام، وكانت الأنعام أطيب عيشاً منهم في العاجل وأسلم عاقبة في الآجل (١)

(الإمام ابن القيم رحمه الله)

(١) مختصر الصواعق المرسلّة على الجهميّة والمعتلة ٤٢/١ - الإمام ابن القيم

• معرفة الله .. الكنز المفقود :

لا بد لكل بناء قوي ثابت من أساس راسخ متين حتى يستقيم البناء ويستطيع مقاومة عوامل الانحلال والهدم ..

وكذلك الإيمان لا بد أن يستند على دعامة قوية تقيه من خطر الانزلاق في مهاوي الشهوات، وتحميه من رياح الغفلات وشروخ المعاصي والسيئات.

فالإيمان لا يقع من القلب موقع الاستقرار والاطمئنان، إلا إذا جاء عن علم بالله ، وبما لله من صفات الجلال والكمال والجمال .

إن معرفة الله هي أسمى المعارف وأجلّها، وهي الأساس الذي تقوم عليه السعادة الروحية ، فإنه لا كمال للإنسان إلا بمعرفة جمال الله وجلاله، واستشعار بره وإحسانه، ورؤية آلائه ونعمائه ، وشهود رحمته وحكمته .

فهل عرفنا الله عز وجل ؟ .. قبل أن تجيب علي هذا السؤال اسأل نفسك :

- لماذا لا يشعر الكثير منا بحلاوة الإيمان ولذة العبادة ؟
- لماذا لا تصبح الصلاة قرة عين وسكينة قلب وغذاء للروح ؟
- لماذا لا تخشع القلوب عند قراءة القرآن وتطمئن عند ذكر الرحمن؟

- لماذا تتجه القلوب إلى بعض المخلوقين بالتعظيم والتوقير ولا تتجه إلى الخالق العظيم ذي الجلال والإكرام؟
أخي في الله ..

(تخيل أنك ذهبت للسوق ودخلت دكانًا من الدكاكين وقابلت فيه رجلاً يتسوق مثلما تتسوق، ودار بينكما حديث ومن خلاله عرفت أن هذا الرجل يعمل وزيرًا في حكومة بلدك، هل ستستمر بالحديث معه بنفس الطريقة التي بدأت بها أم ستتغير ليكسوها الإحترام والحذر؟! .. بلا شك أن معرفتك به ستدفعك إلى تغيير معاملتك له .. فطريقة المعاملة تحددها درجة المعرفة، وكلما ازدادت المعرفة تغيرت المعاملة) (١)

ولله المثل الأعلى... فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل .. فمن عرف الله (تبارك وتعالى) لم يبق له رغبة فيما سواه، ومن عرف الله أحبه وتلذذ بذكره وعبادته، وخافه ورجاه، وتوكل عليه وأنانب إليه، واشتاق إلى لقائه، واستحيا منه وخشع لهيئته، وأجلّه وعظّمه على قدر معرفته به، وانشرح صدره لامثال أوامره، وانقادت جوارحه لطاعته .

(١) حقيقة العبودية ص ٦٣ - د. مجدي الهاللي

• عندما غابت شمس المعرفة :

ونظرة إلى أكثر مجتمعاتنا تشخص لنا أن ما نعاينه من نضوب معين الفضائل، وفساد الضمائر، وانتشار الجرائم، والاستهتار بالقيم، إنما سببه الغفلة عن معرفة الله وعدم استحضار عظمتة في القلوب.

• ألم يخن أكثر الناس الأمانات وينكثوا العهود ، ويجحدوا الحقوق وينسوا الواجبات !؟

• ألم يفترس القوي الضعيف ، ويلتهم الكبير الصغير، ويبغي الناس بعضهم علي بعض ويعيشوا كسباع الغابة أو حيتان البحار!؟

• ألم تتحول النفوس البشرية إلى وحش ضاري تهجم بكل قواها على المتع الحسية، وتطلق غرائزها بكل نهم، وتتطلع بكل حواسها إلي الشهوات الدنيوية تريد أن تلتهم كل متعة وتنهب كل لذة حتى غرقت في أمواج الدنيا ونسيت الآخرة!؟

• ألم تُسفك الدماء وتُستباح الحرمات وتُتهتك الأعراض، وتُنهب الأموال وتُتتهك الأخلاق، وتعم البغضاء وينتشر التقاطع، ويبرز الشقاق!؟

• ألم تخرج المرأة فاتنة مغرية متبرجة ، قد خلعت جلاباب التقى، ونزعت حجاب الستر، وحاربت العفاف ووزعت الرذيلة!؟
أليس هذا - وأكثر- ما نلاحظه في كثير من المجتمعات المسلمة!؟

أليس هناك خلل كبير في معرفتنا بالله عز وجل .. معرفة تليق
بكماله وجلاله وغناه وعظمته؟

فياحسرتاه .. في أي شيء أضعنا الأوقات والأعمار؟! في جمع
الدرهم والدينار، وتزيين المساكن والديار، والتكاثر في الشهادات
والألقاب والافتخار!

إن أفسى أنواع الحرمان أن تحرم قلبك من معرفة الله.. بأسمائه
وصفاته، بكماله وجلاله، بعلمه وحكمته، وتدبيره وقدرته، ولطفه وكرمه؛
فتصاب باليأس المطبق في لحظات المنع والحرمان، وتحرم من السكينة
والسعادة والاطمئنان .

• غاية معرفة الله عز وجل :

إن الغاية الرئيسية من معرفة الله هي أن يكون الله عز وجل هو
غايته ومطلبك ومقصدك في جميع أقوالك وأفعالك، وأن يكون
حبه سبحانه هو أحب الأشياء إليك، وأن يكون العمل على رضاه هو
شغلك الشاغل، فتحرص على القيام بكل ما يرضيه، والابتعاد عن
كل ما يبغضه، وأن تصبح تصوراتك واهتماماتك، وأفراحك
وأحزانك متعلقة بالله عز وجل، فتحب ما يحبه وتبغض ما يبغضه،
وتفرح لما يرضيه وتغضب لما يُغضبه .

وهكذا يجد المؤمن الحياة مع الله، هي الحياة الحقيقية ويجدها
المتعة التي لا حد لها . وكيف لا يجد المتعة والطمأنينة وهو يوقن

أن كل ما في الكون من خلقه، وكل ما في الحياة من أسباب ظاهرة من صنعه وتدييره وأمره ، وأنه ليس في الوجود قوة إلا قوته ولا مخرج من الضيق والكرب إلا بحوله وإرادته .

ومن ثم تصبح حياته وفقاً لأوامر ربه؛ فيحقق الخضوع والاستسلام والانقياد التام والمطلق له ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ (الأنعام)

فيا ليت شعري ..

✓ لو عرفت الله عز وجل .. لأورثتك هذه المعرفة الحياء من الله، والتعظيم له، والمراقبة والتوكل عليه، والإنابة إليه، والرضا به، والتسليم لأمره .

✓ لو عرفت الله عز وجل .. لوجدت حلاوة الإيمان وبرد اليقين وطمأنينة القلب وانسراح الصدر والحياة الطيبة، ما يُعتبر بحق أعظم نعيم يمكن أن يناله أحد في هذه الحياة الدنيا .

✓ (لو عرفته حق المعرفة لأحببته، ولامتلأ قلبك بالشوق إليه، ولامتلأت نفسك بخشيته وإجلاله وتعظيم أمره، واشتاق فؤادك إلى قربه والأنس بلقائه، ولزهدت روحك في كل شيء إلا قربه، ولهان عليك كل شيء في سبيل إرضائه، فقط لو .. عرفته) (١)

(١) صالح للاستعمال القلبي ص ٢٨٥ - د. محمد علي يوسف

الآن فهمت ما قاله أحد العارفين :

(مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها ..
قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: معرفة الله - تعالى - ومحبته والأنس
به والشوق إلي لقاءه والتنعيم بذكره وطاعته) (١)

الآن أدركت جيداً معنى ما قاله الإمام بن تيمية -رحمه الله-
وهو في سجنه :

(ما يصنع أعدائي بي؟ إن جتني وبستاني في صدري، إن رحمت
فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من
بلدي سياحة) (٢)

● معرفة الله أصل الفطرة :

إن الإنسان إذا ترك لفطرته وجبلته - دون تدخل أو تلقين - يجد
نفسه متجهاً إلى قوة عليا فوق الإنسان وفوق الكون ، يدعوها رغباً
ورهباً ، ولا سيما عندما تأخذ بخناقه الشدائد ، وتعصف به الكروب
، وينفض يده من عون الناس من حوله، هنالك يتجه مخلصاً إلى ربه،
طارحاً ما كان يتوجه إليه بتأثير الوهم أو الجهل أو الهوى أو البيئة
من آلهة زائفة .

(١) الوابل الصيب ص ٤٩

(٢) المرجع السابق ص ٤٨

إنه شعور يجده الإنسان في نفسه بغير تعلم ولا تلقين ولا اكتساب ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (فاطر ٣٠)

فإن المرء (إذا ضاقت به السبل وغلقت في وجهه جميع الأبواب تفتحت نفسه وتوجه بقلبه وحسه إلى القوة التي فطر على الاعتماد عليها والاستعانة بها فيدعوها مخلصًا ويسألها المخرج والنجاة ، فإن المريض الذي برح به الألم ، وراكب البحر الذي أشرف على الهلاك ، والمظلوم الذي لا يجد ناصرًا ولا معينًا ، والأم التي يئست من شفاء وحيدها حين تتقطع بهم أسباب الأرض يتوجهون بفطرتهم إلى الله لا يتضرعون إلا له ولا يدعون أحدًا سواه ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (الإسراء ٦٧) (١)

• يقظة الفطرة عند الشدائد:

ولكن هذا الشعور الفطري قد يختفي في ساعات العافية والرخاء والغنى الذي يُطغى الإنسان ويحجبه أحيانًا عن رؤية نفسه على حقيقتها، (فإذا ما نزلت بالإنسان ضراء مسته ، أو ألمت به مصيبة أذهلته ، أو وقع في مأزق أو شدة أطبقت عليه ، والتمس شتى السبل

(١) منهج القرآن في التربية ص ٦١ - محمد شديد

واتخذ كل الحيل للخروج من مأزقه وضيقة ، فلم يجد إلى ذلك سبيلاً ، سمع من داخله صوت الفطرة يناديه أن يلتجئ إلى من بيده ملكوت السماوات والأرض ، ويضرع إليه بصدق العبودية ، فتراه بلا شعور ينفض عنه غبار الكبرياء ، ويطلق سراج الإيمان الراقد بين جوانحه من سجن الشهوات، فتحل عقدة لسانه لينطق باسم الله ضارعاً، ويستعين به في حل كربته ، وتفريج همه ، وبين الله - سبحانه وتعالى - مصداق هذا من خلال هذا الحوار الداخلي الذي يعتلج في صدره ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (يونس ٢٢) (١)

فواعجباً لهذا الإنسان الجاحد .. في الشدائد يجتمع رأيه، وتتفتح ملكاته فيرى الواقع على حقيقته، فإذا زالت الشدة ، وانفسح الأمل، أعطى زمامه لهواه، وأسلم وجوده لشیطانه؛ وكأن ضراً لم يكن قد مسه، وكأن حالاً من الذلة والاستكانة لم تكن قد لبسته، وكأن رحمة السماء لم تمدّ يدها إليه وتستنقذه من الهلاك المطبق عليه !

(١) الحوار والاستدلال في القرآن الكريم ص ٢٦٥ - د. خالد سليمان الياسين

• التفكير.. مفتاح المعرفة:

إن التفكير في آيات الله في النفس والآفاق من أهم المسالك الموصلة إلى بستان المعرفة فهي معراج الوصول إلى اليقين .

(فرب فكرة توصلك من محض الإيمان وصريح الإيقان، وتعرفك من عظمة الله وجلاله ما لا تنفع فيه عبادة السنين المتطاولة ولا الجهود الشاقة، وأني لعبادة الظواهر أن تصل من تطهير القلوب إلى ما تصل إليه الفكرة في بديع صنع الله الذي يملأ قلبك هيبةً وخشوعاً وسرك عظمةً وإجلالاً) (١)

ولكن آيات الله في الكون لا تتجلى على حقيقتها الموحية إلا للقلوب الذاكرة العابدة ؛ لأن هذه القلوب انكشفت عنها الحجب وتفتحت واتصلت بالكون العجيب .

فالذين آمنوا تزيدهم آيات الله إيماناً مع إيمانهم بما يطالعون فيها من وجوه جديدة تتجلى فيها آيات الله، وتشعُّ منها ألوان مضيئة كاشفة عن عظمة الخالق وجلاله وعلمه ورحمته.

فكل ذرة في السموات أو في الأرض فيها عجائب وغرائب تظهر فيها حكمة الله تعالى، وقدرته، وعظمته، وجلاله. فنظرة فاحصة إلى خَلْق السموات وارتفاعها، والأرض وجبالها ووديانها، واختلاف الليل والنهار، والنجوم وأبراجها، والكواكب ومدارها، والبحار

(١) مقالات وفتاوي الشيخ يوسف الدجوي ج ٢ / ١٩

والأنهار وأمواجها، والزهور وألوانها، والنباتات وأنواعها، والفواكه واختلافها، والحشرات والزواحف والطيور بعوالمها تنبتك عن جلاله سبحانه وعظمته وتفرّده بالخلق والأمر.

أخي الحبيب ..

إن (هذا الكون لوحة منصوبة على جدار الأفق، تموج بألوان من الآيات والتفاصيل التي تبعث القلب من رماذ الغفلة، وتجعل له جناحين من تدبر وتفكر كلما بسطهما كان ذلك أعون للقلب على الارتفاع من سفاسف الطين وحمأة القسوة فيكون مهياً للتلقي عن الله تعالى في كتابه المسطور، (وهو القرآن المجيد) وكتابه المنظور وهو الكون الواسع الكبير ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ (آل عمران) (١)

إن أولى النهى والبصائر ينظرون بحكمة في هذا الكون المفتوح، يُقلّبون صفحاته، ويعتبرون بآياته، ثم يتدبرون آيات القرآن، في عجب نسقه وجمال تناسقه، وفي مخاطبته الإنسان بلغته، والتجاوب مع فطرته فيتناغمون معه بنبضات قلوبهم وزغردة أرواحهم؛

(١) عبودية الكون والكائنات ص ٣٠-٣١ - مؤيد حمدان - وجدان العلي

فتستشعر قلوبهم تقصيرها في حقِّ هذا الخالق العظيم بدعاءٍ خاشع
العبارات، عميق النبرات، غزير العبرات.

عجباً لهذا الإنسان الغافل ..

(يمر بهذا الكون فلا يلتفت إلى شيء من الآيات فيه !
لا يلتفت إلى الشمس البازغة ، ولا إلى النور حين يدبر ويبتلعه الظلام !
لا يلتفت إلى الزهرة الجميلة المعطرة البهيجة الألوان !
لا يلتفت إلى صوت الطائر الرقيق الذي يغني مرففاً بجناحيه فوق الغصن !
لا يلتفت إلى الماء الهاطل من السحاب ، ولا إلى الرعد والبرق في السماء !
لا يلتفت إلى الطائر السابح في الفضاء، والسمك السابح في الماء
والدود السارب والنمل الدائب ﴿وَكَايُنُ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف) (١)

يالها من آيات .. يتذوق جمالها من استيقظ من همود العادة
وملاة الإلفة وسبات الرتابة .

يالها من آيات .. لا يراها من عميت عيناه وطُمت بصيرته
وأظلم قلبه ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا
وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ
الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف ١٧٩)

(١) ركائز الإيمان ص ١٩ بتصرف - محمد قطب

فردوس الأسماء الحسنى

(في أفياء شجرة الأسماء الحسنى يجد القلب الظل
الوارف الذي يقيه من رمضاء الشهوات والشبهات، ويمنحه
السكينة والطمأنينة، ويشعره بحلاوة الذكر ولذة المناجاة،
كما يجد العطر الفواح الذي يمنحه الأنس والارتياح،
والثمار الدانية التي تداوي القلوب القاسية)

• من إشراقات الأسماء الحسني :

إن أسماء الله الحسنى وصفاته العلى لها فى نفس المؤمن إشراقة روحية يحس بها من صفا بالإيمان قلبه، وزكت بنور أسماء الله وصفاته نفسه وتلذذ بالمعرفة بربه شعوره الداخلى ووجدانه .

وهذه الإشراقات الروحية، لا يتعرّض لها إلا مَنْ دعا الله تعالى بها، وتشرب قلبه بحبّها، وأخذَ حظّه منها، وجعلها قُدوته فى أقواله وأفعاله وجميع أحواله حتى يكون بها عبدًا ربانيًا يفر بها من وحشة العصيان إلى الأُنس بالرحمن، ويستعيد برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته .. فالعبد مأمور بالفرار إليه سبحانه بقلبه وروحه وعقله وحسه ، مأمور بالفرار منه إليه إذ لا منجا منه إلا إليه والفرار إليه رأس التوحيد وملاك الأمر كله .

(فالأسماء الحسنى شجرة عظمية تحتوي على معاني جلييلة نابعة من علم التوحيد لا يستغني المؤمن عن نفحات عطرها الفواح كي يشعر بالسلام والراحة مع نفسه وغيره كما يدرك من خلالها عظمة الخالق - سبحانه وتعالى - فيزداد المرء خشوعًا له، واعتمادًا عليه، وشوقًا إليه، هذه الثقافة الإيمانية الرفيعة المستمدة من شجرة الأسماء الحسنى أصلها ثابت، وظلها وارف إلى الأبد تهبُّ القلب

الطمأنينة، وتكسب الروح السكينة، وتعطي الخلق الفضيلة، وتمنح العقل الحكمة (١)

• من ثمرات الأسماء الحسني :

ولكل اسم من أسماء الله الحسنى وقع على القلوب المؤمنة .. إذ يجد كل مؤمن حين يذكر ربه بأي اسم من أسمائه حالة من حالات التجلي والإكبار تغمر فؤاده وتأخذ عليه زمام نفسه وملكات عقله وحسه، وتملاً كيانه بالخشية والخشوع .

فلا يسعه إلا أن يكرر هذا الاسم استعداداً لحلاوته في قلبه واستشعاراً بحب ربه وطلباً لقربه من حضرة قدسه، وعندها يجد في أسرار هذه الأسماء حلاوة تشغله عن شهوات الدنيا الفانية وملذاتها الزائلة، ويجد نوراً يغمر القلب ونشوة تملأ الوجدان وسعادة تغمر الحياة، فيعيش حياته مستمتعاً بقلبه بين هذه الأسماء مطمئناً بها قلبه حتى يلقي ربه آمناً من الفزع الذي يلقاه غيره من الغافلين المعرضين.

وكُلَّمَا اغترف قلبك من معين أسمائه سبحانه الحسنى وصفاته العلى، ارتقى في منازل الإيمان ومعارج اليقين، فتشعر بالرضا وأنت تستجيب لأوامر الله التشريعية، وبالسكينة والطمأنينة وأنت تتلقى

(١) كتيب الأبعاد التربوية لأسماء الله الحسنى ص ١ - د. بدر محمد ملك، د. لطيفة حسين الكندري

أقداره سبحانه الكونية، وتتغير نظرتك للمحن والشدائد ؛ فتبصر طرفاً من سعة رحمته، وحسن تدبيره، وروعة لطفه ، وكمال حكمته، وتمام قدرته فترى مشاهد الجمال في الابتلاء، وتبصر أطف الله في أوقات الضراء !

• فادعوه بها :

قال النبي ﷺ: (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ) (١)

وليس المراد بكلمة (من أحصاها دخل الجنة) أي من حفظها معدداً ألفاظها واحداً فواحداً حتى يذكر تسعة وتسعين اسماً، بل إنما أراد ﷺ بكلمة (أحصاها)، أي من صار له شيء من العلم بكل واحدٍ منها وشهد طرفاً مما يشير إليه كل اسم من أسماء الله (تعالى) ، وذلك بالتعرف على معاني هذه الأسماء وتدبرها واستحضار هداياتها ودعاء الله عز وجل بها وتحقيق آثارها الإيمانية والسلوكية علي نحو يبارك النفس ويزكيها، ويرتقي بالقلب والعقل والروح والوجدان إلى مدارج الكمال ومعارج الإحسان .

(١) متفق عليه .. أخرجه البخاري برقم (٢٧٣٦) واللفظ له، ومسلم برقم (٢٦٧٧).

وبالمثال يتضح المقال :

لا بدّ للمؤمن أن يعرف أن ربه هو (القوي)؛ ليستعين به في مقاومة إغراء الشيطان وشهوات النفس الأمّارة بالسوء .

ويعرف أن ربه هو (الغني) ؛ ليطلب منه وحده كل ما يحتاجه من أمور الدنيا والآخرة .

ويعرف أن ربه هو (العفو) ؛ فيطلب منه العفو والصفح والغفران .

ويعرف أن ربه هو (الملك)؛ فيتوجه إليه بالطاعة والعبودية والإذعان .

ويعرف أن ربه هو (الرحمن) ؛ ليطلب منه الرحمة .

ويعرف أن ربه هو (اللطيف) ؛ ليسأله اللطف به .

ويعرف أن ربه هو (الكريم) ؛ ليشكره على إحسانه وإنعامه وعطائه .

ويعرف أن ربه (الحي القيوم) ؛ ليسأله أن يكأله ويحفظه في كل شئون حياته .

وهكذا .. في بقية الأسماء ينبغي علينا أن نعى بها فهمًا وتدبرًا، ثم من بعد ذلك قيامًا بحقوقها وموجباتها من مراقبة الله عز وجل وخوفه، وخشيته، والإنابة إليه، والإقبال على طاعته .

فواعجابه ..

- ✓ كيف يقرأ المرء أسماء الجلال لمتعلقة بعظمة الله وجبروته
ثم لا يشعر بمشاعر الخشية والهيبة والإشفاق؟
- ✓ وكيف يقرأ أسماء الجمال المتعلقة بالرحمة والبر
والإحسان ثم لا يشعر بمشاعر الطمأنينة والرجاء والاشتياق؟
- ✓ أي ثمرة يقطفها المؤمن من تدبر الأسماء الحسنى إن لم
يسارع إلى رضا مولاه، واتبع شيطانه وآثر هواه، ولم يبال بالأوامر
والنواهي؟

● وقفات مع بعض أسماء الله الحسني :

أخي القاريء .. أودُّ أن أقف معك وقفات يسيرة مع ثلاثة أسماء
من الأسماء الحسنى؛ لنرى جلالها وكمالها حتى تتأثر القلوب
بآثارها ومقتضياتها، وتمتلئ بالسكينة والطمأنينة، وتفيض النفس
بالسعادة الروحية .

١- اسم الله (الرحمن الرحيم) :

• إشراقه سعادة:

إن المؤمن عندما يلهج في دعائه بهذا الاسم تغمره سحائب الرحمة، فلا يجد نفسه بمعزل عنها، بل يجد نفسه مدفوعاً بشوق وشغف إلى تكرار هذا الاسم في دعائه مرة بعد مرة، فهو اسم يُشعر بالسرور والحبور ويبعث في النفوس الأمل والرجاء، ويبعث على صالح العمل ويُشعر النفس بالأمن والأمان، ويطرد عنها شبح اليأس والقنوط .

• من تجليات رحمة الله عز وجل :

✓ تتجلى رحمة الله عز وجل ابتداءً في وجود البشر أنفسهم، وفي نشأتهم من حيث لا يعلمون وفي تكريم الإنسان على كثير من العالمين، وفي تسخير ما في هذا الكون العظيم من النعم والطاقات، والقوى والأرزاق، والماء والهواء وغير ذلك مما يتقلب فيه الإنسان كل لحظة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء ٧٠)

✓ وتتجلى رحمة الله في تعليم الإنسان ما لم يعلم مما يحتاجه في حياته ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل ٧٨)

✓ وتتجلى كذلك في رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه في الأرض بموا الاله إرسال الرسل اليه بالهدى كلما نسي أو ضلَّ، وأخذه بالحلم كلما لج في الضلالة والجهالة ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ..﴾ (الكهف ٥٨)

✓ وتتجلى كذلك في مجازاته العبد على السيئة بمثلها، ومجازاته على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومحو السيئة بالحسنة ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الأنعام ١٦٠)

✓ وتتجلى في تجاوز الله عن سيئات العباد إذا عملوها بجهالة ثم تابوا، وبكتابة الرحمة على نفسه كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام ٥٤)

✓ وتتجلى في أنه سبحانه نغص علي عباده الدنيا وكدرها؛ لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا بها؛ كي يرغبوا في النعيم المقيم في دار جواره .

وما أروع هذا الحديث النبوي الذي يصور سعة الرحمة الإلهية وشمولها
للدنيا والآخرة! فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول:

(جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا
وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاخُمُ الْخَلْقُ حَتَّى
تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشِيَةً أَنْ تُصِيبَهُ) (١)

• شبهة والرد عليها:

قد يتعجب بعض الذين لم يتذوقوا حلاوة الإيمان ولم يتأملوا
في أسرار رحمة الله عز وجل فيتساءلون: (إذا كان الله رحيمًا
ورحمانًا علي هذا النحو، فلماذا نشاهد في الكون كثيرًا من القسوة
والظلم والآلام الجسدية والنفسية الهائلة التي يتعرض لها كثير من
الناس في حياتهم؟!).

وللإجابة على هذا السؤال؛ أقتطف هذه الكلمات للدكتور
(سامي العامري) من كتابه الرائع (مشكلة الشر ووجود الله) (٢):

(إن الشرَّ هو الذي ينفث في الخير روح الوجود وريح النسيم، إنه
وقود حركته وسبيل استوائه، إنَّ نقص العالم هو الذي يستحث
وجودنا إلى السعي إلى الكمال، وإنَّ أثقال الشر هي التي تحركنا إلى
ارتقاء معارج الخير...

(١) البخاري (٦٠٠٠)

(٢) راجع ص ١٢٥-١٣٨

إن تقلب الإنسان بين طباق الشر والخير، مختبر لإيمانه، وبه ينكشف صدق الولاء للمعتقد الحق، إن كان على دين الحق، وإلا فهو تحفيز لعقله واستحثاث لقلبه أن يتفكر ويتدبر في أمر هذا الخلق، وما وراءه، وأمر هذا الوجود وما يحركه.

أيضاً يتبلي الله العباد؛ ليتوبوا إليه، وليكفر عنهم خطاياهم، وليردهم إليه، وليعلم العباد بحقارة هذه الدنيا، إذا أَلِفَ العافية ودُلَّت له النعمة. إذاً ليس الشر هو عدونا، وإنما هو الكاشف الأمين عن العدو الحقيقي.

ومن العذاب الذي يصيب الناس في الدنيا ما هو في حقيقته عقاب من الرب سبحانه للبشر على ذنب اجترحوه وجرم أوغلوا فيه دون عقبي ندم وتعطر باستغفار..

وليست العقوبات كلها محض نكاية، وإنما منها ما هو يد الرحمة الشديدة إذ تهز اللاهي المستغرق في غفلته أن أفق وأقلع عن هذا الشر العظيم الذي تأتبه دون خفقة ندم، أو طيف حسرة ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم ٤١)، لعلهم يرجعون رجوع من نهته صعقة العذاب إلى بشاعة ما اجتنته يده، فأقبل مهرولاً إلى حيث نجاته)

• خزائن الرحمة الإلهية :

إن المؤمن يجد رحمة الله تحف به، وتمشي في ركابه في حال يسره وعسره، ومنشطه ومكرهه، ومرضه وصحته، وغناه وفقره، وقد يفقد كل شيء يرى الناس أن فقدته حرمان وغيابه خسران؛ ولكنه سعيد برحمة ربه فهي أنيس وحدته ورفيق غربته .

إن النعمة إذا حفتها رحمة الله انقلبت نعمة، وإذا فُتح باب الرحمة على العبد فلا خوف ولو أُغْلِقَتْ أبواب الدنيا جميعًا، وإذا أُغْلِقَ باب الرحمة في وجه العبد فلا أنس ولا أمان ولو فتحت له أبواب الدنيا جميعًا ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (فاطر ٢)

(ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان ولا في أي حال ..
وجدها إبراهيم (عليه السلام) في النار، ووجدها يوسف (عليه السلام) في الجُب كما وجدها في السجن، ووجدها يونس (عليه السلام) في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، ووجدها موسى (عليه السلام) - في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه، ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور فقال بعضهم لبعض: ﴿قَاوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾، ووجدها رسول الله ﷺ (وصاحبه في الغار) والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثار ..

ووجدها كل من آوى إليها يأساً من كل ما سواها منقطعاً عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنة في رحمة ، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب) (١)

وما أجمل هذا الحديث النبوي الذي يملأ قلب المؤمن بالطمأنينة والرضا فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: (قَدِمَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبِيٍّ (أَسْرَى)، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبِيِّ تَبْتَغِي (أَي تَبْحَثُ عَنْ ابْنِهَا)، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبِيِّ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا وَاللَّهِ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَيَّ أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَللَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا) (٢)

أخي في الله ..

ما ظنك بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده، ومن الوالدة بولدها؟ إذا فر عبد إليه وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحاً ببابه يمرغ خده في ثرى أعتابه باكياً بين يديه، يقول : يارب، يا رب، ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوي له سواك، ولا مغيث له سواك مسكينك وفقيرك، وسائلك ومؤملك ومرجيك لا ملجأ له ولا منجأ له منك إلا إليك.

(١) في ظلال القرآن ج ٥ / ٢٩٢٣ - سيد قطب .. راجع ما كتبه صاحب الظلال في سورة فاطر (الآية ٢) تجد فيها فوائد نفيسة وإشراقات قيمة.

(٢) متفق عليه .. البخاري (٥٦٥٣)، ومسلم (٢١٠٩)

وما أجمل أن نردد مع يحيى بن معاذ (رحمه الله) :

(إلهى قد أنزلت إلينا رحمة واحدة وأكرمتنا بتلك الرحمة وهي الإسلام، وإذا أنزلت علينا مائة رحمة، فكيف لا نرجو مغفرتك. إلهى، إن كان ثوابك للمطيعين ورحمتك للمذنبين، فإنى وإن كنت لست مطيعًا لا أرجو ثوابك فأنا من المذنبين فأرجو رحمتك .

إلهى، خلقت الجنة وجعلتها وليمة لأوليائك وآيست الكفار منها، وخلقت ملائكتك غير محتاجين إليها وأنت مستغن عنها، فإن لم تعطنا الجنة فلمن تكون؟!)(١)

(١) سراج الطالبين على منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين ج ٢ / ٢١٤ - الإمام الغزالي .

٢- اسم الله (العزیز) :

• إشراقة يقين :

عندما يذكر المسلم ربه باسمه «العزیز» يشعر في أعماق قلبه بعزة المؤمن وقوة الإيمان، وغلبة جانب الخير على جانب الشر، ويعتقد اعتقادًا جازمًا أنه محاط بعناية ربه، ممنوع بقوة خالقه عن كل من يدبر له كيدًا في العلانية أو يضمّر له سوءًا في الخفاء ، وإذا أكثر من ذكر «العزیز» أحسَّ ببرد اليقين في كيانه كله، وأدرك بثاقب فكره أنه أمام قوة قاهرة، وقدرة قادرة وإرادة نافذة وعلم محيط ورحمة واسعة ونعمة غامرة .. وبالجملة أحس بأنه أمام أسماء الله الحسنى كلها تتجلى له في هذا الاسم، وتتزاحم عليه في معانيها ومراميتها ويجد في هذا الاسم جميع أوصاف الكمال والجلال والجمال) (١)

• من معاني اسم الله (العزیز) :

✓ العزیز: الذي له معاني العزة كلها ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (يونس ٦٥) فله عزة (القوة) التي لا تنسب على الكمال لأحد سواه ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج ٧٤) .. وله عزة (القهر والغلبة) فجميع المخلوقات في العالم العلوي والسفلي مقهورة للعزیز الجبار، خاضعة لعظمته منقادة لأمره، مستجيبة

(١) أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها ص ٣٨- د. محمد بكر إسماعيل

لإرادته ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُوِّرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (الزمر ٥).. وله عزة (الامتناع) عن مغالبة أحد، وعن أن يقدر عليه أحد، أو يبلغ العباد ضرره فيضروهم، أو نفعه فينفعوه، وامتناعه وتكبره عن جميع ما لا يليق بعظمته وجلاله من العيوب والنقائص وعن كل ما ينافي كماله .

✓ العزيز: الذي ألبس الجبابرة عزته فذلت، وصبَّ على الوجوه مخافته فخضعت، وقهر الخلائق على ما أراد فأطاعت .

● الباحثون عن العزة :

يُخطيء كثير من الناس عندما يبحثون عن مصدر العزة مع المال أو المنصب أو الجاه والسلطان أو الأولاد أو القصور الفاخرة والمراكب الفارهة، ثم لا يجنوا من وراء ذلك إلا الذل والشقاء. لقد بحث عنها فرعون في ملكه وسلطانه وجاهه، فكان عاقبته الغرق والهلاك.

ويبحث عنها قارون في كنوزه وأمواله، فكانت عاقبته التباب والدمار.

ويبحث عنها صاحب الجنتين في جناته وأمواله وأولاده .. فماذا كانت النتيجة؟ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (الكهف ٤٢)

يا سادة ، اعلّموا أنه ليس هناك إلا مصدرًا واحدًا للعزة ﴿مَنْ كَانَ
يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (فاطر ١٠)

قل لي بربك ..

✓ من الذي نجى يوسف (عليه السلام) من كيد إخوته، بل
وجعل الجُب الموحش وسيلة للوصول إلى المُلك العريض !؟

✓ ومن الذي حمى موسى (عليه السلام) وهو طفل رضيع من
بطش فرعون، بل ورباه في قصره تحت رعايته !؟

✓ ومن الذي حفظ نبيه ﷺ من مكر كفار قريش، عندما عزموا
على قتله ، ثم جعل رحلة الهجرة المحفوفة بالمخاطر هي الانطلاقة
الكبرى لانتشار الإسلام والتمكين في الأرض بعد ذلك !؟

فيا عجباً ممن يطلب العزة ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً
وليس يملك منها مثقال ذرة وإنما ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون ٨)

كيف يسوغ لعاقل أن يستمدّ القوة والعزّة من غير مالها سبحانه ؟
إن أي متجه يتجه إليه طالب القوة والعزة غير الاتجاه إلى الله
وحده، هو سعى إلى تباب ، وإتجاه إلى بوار.

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت *** فإذا اعتزرت بمن يموت فإن عزك ميت

أخي ..

لن تجد العزة الحقيقية إلا في التذلل لله والانكسار بين يديه ،
والخضوع لعظمته والاحتماء به والتوكل عليه .

هل جربت يوماً سجدة خاشعة للعزيز تعلن فيها ذلك وانكسارك
وافتقارك؟ وهل يُعلن الفقر إلا في السجود حيث يهوي الرأس على
الثرى؟! ويُمرغ الجبين في الأرض، ويغرس الأنف في التراب، افتقاراً
لرحمة الوهاب!؟

٣- اسم الله (الفتاح) :

• إشراقه رجاء:

إذا لهج لسان المؤمن باسمه (الفتاح) امتلاً قلبه رجاءً في واسع رحمته وعظيم عطائه، وأحسَّ بأبواب الخير تتفتح أمامه، ووجد أنه في كنف ربه الذي بيده مفاتيح الغيب، ومفاتيح العلم، ومفاتيح الرزق، فزال ما في نفسه من الهواجس النفسية، والوساوس الشيطانية التي تفرض نفسها عليه في بعض الأحيان على حين غفلة منه؛ لأنه يوقن أن الله الفتاح هو الذي يارادته وقدرته يفتح كل مغلق، وبعنايته وهديته ينكشف كل مشكل، وبرحمته وفضله يندفع البلاء، ويذهب الشر، ويزول العسر، وتذهب الغمة، ويتبدد الحزن، ويتجدد الأمل.

• من معاني اسم الله (الفتاح) :

✓ الذي يفتح لعباده جميع أبواب الخيرات .. يفتح لعباده منافع الدنيا والدين، فيفتح لمن اختصهم بلطفه وعنايته أفقار القلوب، ويُدِرُّ عليها من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية ما يُصلح أحوالها وتستقيم به على الصراط المستقيم، ويفتح أيضاً لعباده أبواب الأرزاق وطرق الأسباب، ويهيئ للمتقين من الأرزاق وأسبابها ما لا يحتسبون، ويعطي المتوكلين فوق ما يطلبون ويؤملون، ويسر لهم الأمور العسيرة، ويفتح لهم الأبواب المغلقة.

✓ الفتح الذي يحكم ويقضي بين عباده بالحق والعدل، لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يحتاج إلى شهود تعرفه المحق من المبطل والمصلح من المفسد.

هل استشعرت عجزك وفقرك؟

إن الخلق كلهم مفتقرون إلى الفتح سبحانه، وليس بيد أحد منهم من الأمر شيء، ولا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق، فما شاء فعل، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ليس للخلق مع إرادته إرادة، فما يمنحه لعبده من عباده من خير فلا يستطيع أحد - كائنًا من كان - أن يمنعه إياه وإذا أمسك عن أحد شيئًا من الرزق وغيره فلا يستطيع أحد - كائنًا من كان - أن ينفعه به أو يُمكنه منه.

أخي في الله .. سل نفسك :

✓ من بيده مفاتيح العلم والهدى والخير والرحمة والرزق، ومفاتيح ما انغلق من الأمور؟

✓ من الذي يفتح مغاليق القلوب بالهدى والإيمان فتلين وتذعن ويسهل انقيادها بعدما رفضت وعارضت وتمنعت؟

✓ من الذي يكشف الغمة عن عباده ويسرع بالفرج ويرفع الكرب ويجلي العماية ويزيل الضراء ويفيض الرحمة؟

✓ من الذي يفتح لك جميع الأبواب المغلقة؟ يفتح لك باب العمل، ويفتح لك باب الزواج، ويفتح لك باب السكينة والطمأنينة

والراحة النفسية، ويفتح لك باب الدعاء والإجابة، ويفتح لك باب التوفيق والنجاح؟

وإنَّ من أجمل الآثار السلوكية لمعايشة اسم الله (الفتاح) أن يفتح الله (تعالى) لك أبواب الفهم في لحظات الضيق والمنع - والتي تشتد فيها الوسوس الشيطانية لتغريك بالجزع والهلع ؛ فتبصر الألفاظ الإلهية والمنح الربانية في أوقات الضراء ، وهذا ما عبر عنه ابن عطاء الله (رحمه الله) عندما قال: (ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، متى فتح لك باب الفهم في المنع صار المنع عين العطاء).

وإني لأحدثك عن أعجب ما دعوت الله عز وجل باسمه (الفتاح) في موقفين:

الأول : عندما طلبت منه سبحانه أن يفتح لي بابًا للرجيم وإنقاص الوزن ؛ فقد كنت - كعادة أكثر من يعاني من السمنة - أتصور نجاحي في انقاص وزني ضرباً من المستحيل.

الثاني : عندما أغلقت صفحتي على الفيس بوك بسبب فيروس مجهول ، فدعوت الله أن ييسر لي فتحها مرة أخرى.

من هاتين التجربتين أستطيع أن أؤكد أن (الفتاح) سبحانه لا يفتح لك الأبواب المغلقة فقط ، بل ييسر لك فتح مغاليق نفسك

التي استحكمت أقفالها ؛ فأصابتك بالعجز والوهن ، وحرمتك من الحركة والفاعلية .

فواعجابه ممن يتجه لقضاء حوائجه إلى المخلوقين الضعفاء العاجزين وينسى من بيده مفاتيح الخزائن ومقاليد الأمور !
واعجابه .. كيف غفلنا عن أسرار هذا الاسم العظيم وبركاته ونفحاته ؟

كيف لا تلهج ألسنتنا بذكره في كل صغيرة وكبيرة ؟

كيف يتسرب اليأس إلى قلب مؤمن وينقطع أمله ورببه عز وجل هو الفتح ؟!

يا صاحب الهم إن الهم منفرج *** أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه *** لا تيأسنَّ فإن الكافي الله
وإذا بليت فثق بالله وارص به *** إن الذي يكشف البلوى هو الله

• احذر فتح الاستدراج :

إن الإنسان الذي أسكرته نشوة الاستكبار، وأغراه الشيطان بمزيد من الطغيان، وقادته أهوائه إلى إدمان العصيان يمده الله بألوان الرغائب والنعم واللذائذ والمشتهيات؛ حتى ينخدع بهذه النعمة ويظن أنها عنوان محبة وإكرام من الله تعالى ، وليس شيء منها جاء استدراجاً ومقدمة للعذاب .

واقراً إن شئت قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (الأنعام ٤٤)

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ..

وإنما ينخدع بهذا الفتح في الأرزاق والأموال والجاه والرخاء طلاب الدنيا وعشاق الشهوات - كأمثال قارون وصاحب الجنتين - الذين يظنون في إغداق النعم علامة على الرضا الإلهي والكرامة الربانية، أما أرباب البصائر والنهي فيرون في ذلك امتحاناً وابتلاءً أو استدراجاً وإملاءً .

فقد جاء عن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (١)

(إن مما يميز الإكرام عن الاستدراج ، حال العبد الذي يتلقى من ربه المنن والنعم. فإن تلقاها مع الشكر يتوجه به إلى ربه، مستمراً عليه، فهذا دليل على أنها تفقد إليه رسائل حب وإكرام، وإن تلقاها مشغولاً بها عن المنعم محجوباً بها عن ذكر مولاه المتفضل بها

(١) رواه الإمام أحمد (١٧٣١١)

عليه، منصرفاً بها إلى الوجوه والسبل التي لا ترضي الله عز وجل
فذلك دليل على أن الله يرسلها إليه لتستدرجه إلى مزيد من الغفلات
وإلى الانغماس في مزيد من الملهيات والمنسيات . وإنما لعقوبة
عاجلة يبتلي الله بها من سخط عليه لإمعانه في الإعراض عن كل ما
يذكره بالله ويدعوه إلى حمده وشكره رغم كثرة المنبهات
والمحذرات التي لا تنقطع عنه) (١)

(١) من سنن الله في عبادته ص ١٢٣-١٢٤ - د. محمد سعيد البوطي

شلاات التوبة

(لكأن التوبة نهرٌ عذب جار، يتطهر العبد به من أدرانته،
ينغمس في مياهه مَنْ لوثته الشهوات، واكتوى بنار
المخالفات، فإذا النهر مغتسلٌ باردٌ يطفىء تلك النار، ويغسل
تلك الأوزار، فيخرج العبد منه نقيًا من الأوساخ
والشوائب)(١)

(الأستاذ أحمد الحموي)

(١) من مقال بعنوان (التوبة) - موقع رابطة أدباء الشام

• هل فرحت بالمعصية؟!

إن أشد ما يفسد حياة الإنسان - عن تجربة- وينزع منها البركة والطمأنينة هو الانغماس في الذنوب والمعاصي .. فللمعصية ظلمة في القلب وسواد في الوجة وضيق في الصدر ، وارضاء للشيطان واستجلاب سخط الرحمن ، وجلب للهيم وحرمان للعلم، وذهاب للحياء وحلول الجفاء، وفتور في فعل الخيرات وتكاسل عن الطاعات ،وسبباً في سوء الخاتمة. فكم من معصية أذهبت لذة عبادة وأضاعت حلاوة طاعة، وأدت إلى تراكم ذنوب أخرى أصابت القلب في مقتل .. فلم يعد يقوى علي فعل طاعة ولم يستطع مقاومة شهوة حتى أصبح فريسة للشيطان، وكلما حاول العبد أن يلج باب التوبة؛ ليتطهر من دنس الآثام ثبطه الشيطان ووسوس له بأنه أضعف من أن يقاوم رغائب شهواته ويؤكد له بأنه ليس أكثر من سجين في فلکها وبأنه سيظل خاضعاً لحكمها ، مستجيباً لأوامرها .

و(من العقوبات العاجلة التي قد لا يلحظها الخلق - أن يطفأ نور القلب وتخيم عليه الوحشة والظلام . أن تغادره السعادة بغير رجعة ويرحل عنه الرضا بلا عودة وتتركه السكينة وتجافيه الطمأنينة. قد لا تدرك حقيقة كونه يُعاقب، وقد يُشوش على حالته غلاف البهجة المصطنعة والمرح الزائف، لكن ذلك في حقيقة الأمر ما هو إلا

مجرد قشرة زائفة تحجب نيراناً تضطرم في قلبه وتتلظى بها روحه وتحترق بها نفسه. نيران كآبة المعصية والمعيشة الضنك(١)

وقد (يحدث أن يُعلن العاصي توبته، فيعزم على التوبة والإقلاع عن الذنوب، لكن سرعان ما تزل قدمه ويضعف، أمام عنفوان غرائزه وشهواته، فتزل قدمه مرة أخرى، وتهوي إرادته أمام المغريات، فلا يقوى على الصمود، ليجد الشيطان بذلك كوة أو سبيلاً ينفذ منه لهذا التائب العاصي ويتسرب لنفسه وقلبه، فيبدأ ينصب له شره وشباكه ويوقعه في مكائده، ويصور له أن توبته ما كانت إلا ضرباً من الزيف أو النفاق، ويبدأ بتيئيسه من صلاح حاله بعدم قبول توبته، فيزين له الاستسلام لضعفه والإقرار به وتلبية غرائزه خير من أن يعيش الصراع بين التوبة والمعصية) (٢)

• لا تقنطوا من رحمة الله :

عَلِمَ رَبُّكَ عِزَّ وَجَلَّ أَنْكَ مَخْلُوقٍ ضَعِيفٍ لَا تَقْوَى عَلَى مَقَاوِمَةِ الشَّهَوَاتِ، وَكَثِيرًا مَا تَتَعَثَّرُ فِي أَحْجَارِ الْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ ؛ فَفَتَحْ لَكَ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَاتِ، وَدَعَاكَ إِلَيْهَا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ حَتَّى لَا تَسْقُطَ فِي وَحْلِ الْيَأْسِ فَتَغْشَاكَ الظُّلْمَاتُ وَعِنْدَهَا تَتَلَفَّفُكَ يَدُ الشَّيْطَانِ؛ لِتَغْرِيكَ بِمَزِيدٍ مِنَ الْمَوْبِقَاتِ وَالْمُنْكَرَاتِ .. وَيَا لِسَعَادَةِ

(١) صاحبك القرآن ص ٥٨ - د. محمد علي يوسف

(٢) مقال (لا تجعل حاضرِك مرآة لِمَاضِيِك) - سيرين الصعيدي - موقع بصائر

الشیطان حينها إذا نجح في إقناعك بأن كثرة ذنوبك وإصرارك على عيوبك تحرمك من رحمة الله عز وجل ، وأنَّ البديل هو إلقاءك في جُبِّ اليأس تتلظى بنيران القلق والحيرة والحرمان !

ويحك يا صاح!

معركتك مع الشيطان تتلخص في حرمانك من ولوج باب التوبة بدعوى كثرة نقض العهد وضعفك المتواصل أمام إغراء الشهوات . فهل تتركه يظفر بذلك !؟

وكيف تتركه يخدعك وربك عز وجل البر الرحيم الكريم يدعوك إلى الحمى الآمن لتغتسل من أدرانك وتتنصر على شيطانك ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر ٥٣)

فما أكرمه من ربِّ وما أرحمه!، يخاطب عبده بهذه الرقة، فيتنزع اليأس من قلبه انتزاعاً، ويغرس الأمل غرساً، ويأخذ بيده إلى ميدان رحب من الرجاء والتفاؤل.

فماذا تنتظر !؟

• هذا مغتسل بارد وشراب :

(إن التوبة هي شلال الجمال المتدفق من كوثر الرحمن، الفواح بأريج عطاء الله وكرمه.. التوبة هي ضوء النفس وطهورها. تماماً كما أن للأعضاء البدنية وضوءها وطهورها.. فأن تتوب إلى الله يعني أنك تتطهر، وأنت تجرد نفسك من خبائثها تجريداً. إن التوبة تجمع كل منازل (التهديب والتصفية)، وترتقي بصاحبها عبر الأمواج الدافقة نحو السماء. إنها جمال الطهور المفضي إلى بحر المحبة الإلهي! ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة ٢٢٢) (١)

التَّوبَةُ انكِسَارٌ وَخُضُوعٌ لِلرَّبِّ، واعترافٌ وإقرارٌ بالذنبِ، وندمٌ وتألُّمٌ في القلبِ، مع الخوفِ والرجاءِ والحبِّ ..

التَّوبَةُ تَذَلُّلٌ واستغفار، واستعتابٌ واعتذار ..

التَّوبَةُ خَوْفٌ ورجاءٌ، وخجلٌ من الله وحياءٌ، وخَشْيَةٌ ووجلٌ وبُكَاءٌ، ونَضْرَعٌ ومُنَاجَاةٌ ودُعَاءٌ ..

التَّوبَةُ نَدَمٌ وإقْلَاعٌ وَأَوْبَةٌ، نَدَمٌ على ما فَرَّطَ في الماضي، وإقْلَاعٌ فوريٌّ عن الذنوبِ والمعاصي، وعزمٌ قويٌّ على عدم مُعاودتها فيما يأتي .

(١) جمالية الدين ص ٢٢٨ - د. فريد الأنصاري

• وأدركت قيمة التوبة عندما وجدت المعصية كسجن نفسي ضيق مظلم تعشعش فيه جرائم الهم والقلق، وتصيب الروح بالانقباض والوحشة !

• وأدركت قيمة التوبة الصادقة عندما وجدت توظيف مشاعر العبودية لله عز وجل التي اختفت وسط ركام الشهوات وطول الغفلات فتدفع صاحبها إلى الندم والاستغفار والتذلل والانكسار.

• وأدركت قيمة التوبة عندما تأملت التصوير النبوي الرائع الذي يسكب في القلب شلالات الأمل والرجاء وينزع عنها لباس اليأس والقنوط ، فعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال رسول الله ﷺ: (لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة (فقر لا ماء فيها) فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه.. فأيس (يئس) منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها (ما يوضع علي أنف الدابة لتقاد به) ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك .. أخطأ من شدة الفرح) (١)

(١) رواه مسلم (٢٧٤٧)

واشوقاه إلى توبة تجبر كسر قلب أنهكته جراحات الذنوب
وغرق في المعاصي حتى النخاع ؛ لتذيقه لذة القرب بعد طول غياب
وتنتشله من بئر الحرمان والضياع !

واشوقاه إلى توبة تنتشلني من مستنقع شهواتي وتنقذني من ورطة
غفلاتي؛ فأجد نسيم التوبة العليل يلامس الأنف المزكوم ونفحات
الرحمة تغمر القلب المثقل بالهموم !

فما أضيّق الحياة لولا نعمة التوبة ! وما أشأم من يعرض عنها
وهو يرى الكرم الرباني يغدو ويروح !

• أركان التوبة :

١ - الندم علي ما فرط العبد في جنب الله :

والندم انفعال القلب بالأسى والحزن والحسرة بسبب ما وقع
من ذنب؛ خوفاً من سوء عاقبته عند الله أوحياً منه سبحانه ..
إذا تذكّر عظيم ذنوبه وكثير خطئه هاجت عليه أحزانه وأسبل
دمعه، فأنفاسه متوهّجة وزفراته بحرق فؤاده متصلة.

إنه الشعور بالتقصير أمام الله عز وجل.. يستجمع الإنسان في
ذاكرته إساءته إلى الله وإحسان الله تعالى إليه.. يتذكر نعم الله (تعالى)
عليه ويتذكر معصيته لله عز وجل فينشأ من ذلك حالة الندم.. حالة
الأسى والأسف التي يذوب فيها القلب كما يذوب الملح في الماء .

٢- الإقلاع بالفعل عن الذنب :

أن يترك المعصية في الحال من غير إبطاء أو تسويق ، فإذا كان الندم الذي حصل في قلبه يمثل توبة القلب أو توبة الباطن .. فإن توبة الظاهر حقيقتها أن يترك ممارسة المعاصي بجوارحه .. فكما تاب قلبه بالندم تتوب جوارحه بترك المعصية، فإن من صلح قلبه صلحت جوارحه .

٣- العزم المصمم ألا يعود إلى الذنب :

لا توبة إلا بهذا العزم .. أما إذا كان يتوب وهو يحن إلى المعصية، ولا يزال في قلبه تعلق بها ولا زال عقله يفكر فيها فهذه ليست توبة.. لا بد أن يكون ساعة التوبة قاطع العزم كحد السيف مُصراً على ألا يعود إليها كما لا يعود اللبن إلى الضرع إذا خرج منه، قد يضعف بعد ذلك، قد تخونه إرادته، قد يغلبه هواه، قد يصصره شيطانه ويهزمه.. فالمعركة بين الخير والشر مستمرة، ولكن المهم ساعة التوبة يكون عازماً عزمًا أكيداً ألا يعود إلى الذنب ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَعَسَىٰ أَلَّا اللَّهُ وَكَمْ يُصِرُّوهُ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران ١٣٥).

إن المؤمن قد يقترف المعصية ويرتكب الخطيئة، ولكنه بحسب قوة مناعته الإيمانية يأوى سريعاً إلى كهف التقوى يستمد منه النور الذي يواجهه به ظلمات الإثم فيعود إلى كنف ربه نادماً تائباً معلناً انتصاره على شيطانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف ٢٠١) .

إن المتقين (إذا أخذتهم سنة الغفلة تَذَكَّرُوا) عقاب الله وغضبه ، أو ثواب الله وإنعامه ، أو مراقبته والحياء منه ، أو مننه وإحسانه ، أو طرده وإبعاده ، أو حجبته وإهماله ، أو عداوة الشيطان وإغواءه ، كل على قدر مقامه، فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ ومكائد الشيطان فيحترزون منها ، ولا يعودون إليها بخلاف المنهمكين في الغفلة(١)

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٢/ ٢٩٨ - ابن عجيبة الحسني

وهبت نسيمات الأُنس

(سئل أحد العارفين متى يبلغ الرجل حقيقة الأُنس بالله ؟
قال : إذا صفا الود فيه وخلصت المعاملة فيما بين العبد
وبين الله ، قلت : فمتى يصفو الود وتخلص المعاملة ؟

قال : إذا اجتمع الهم فصار في الطاعة ، قلت : ومتى
يجتمع الهم فيصير في الطاعة ؟ قال : إذا اجتمعت الهموم
فصارت همًا واحدًا) (١)

(١) حلية الأولياء ج ١٠ / ١٣٧

• حقيقة الأُنس بالله :

(إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرّف أنت إلى الله وتودّد إليه تنل بذلك غاية العز والرفعة) (١)

هكذا عبر الإمام ابن القيم -رحمه الله- في كلمات رائعة عن حقيقة الأُنس بالله .

فالأنس بالله فرح وسعادة غامرة تملأ القلب بالمحسوب سبحانه، وهو حال يصل إليه السالك معتمداً على الله ساكناً إليه مستعيناً به، وفي الأُنس شعور يمتزج بالهيبة والخشوع يغمر كيان الإنسان كله مما يجعله يجد سعادته في خلوته، وهناءه في وحدته، يناجي ربه ويشكو همّه إليه ، يتلذذ بمناجاته ويسعد بالانطراح بين يديه، يتغنّى بالدعاء له والثناء عليه والتسبيح والتقديس له عز وجل، ويشعر بأن كل ما في الكون من مخلوقات نعمات مميزة تشترك معه في التسبيح لله عز وجل ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾ (الإسراء ٤٤)

(١) نظم القلائد في ترتيب كتاب الفوائد لابن القيم ص ١٢٦ - رضوان جامع

يردد مع القائل :

(لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذة الأُنس بالله
لجالدونا عليه بالسيوف ، ولو ذاق أرباب الدنيا ما ذقناه من حلاوة
الطاعة لغبطونا وزاحموننا عليه) (١)

ألا ما أروع نسمات الأُنس بالله !

كلما عُرِضَ للمؤمن أمر من ربه أو نهي أحس من قلبه ناطقاً
يقول : أنا عبدك ومسكينك وفقيرك ، وأنا عبدك العاجز الضعيف ،
لا صبر لي إن لم تُصَبِّرني، ولا قوة لي إن لم تحملني وتقوني ، لا
ملجأ لي منك إلا إليك ، ولا مستعان لي إلا بك ولا انصراف لي عن
بابك ولا مذهب لي عنك ، فينطرح بمجموعه بين يديه ويعتمد
بكليته عليه. فإن أصابه بما يكره قال : رحمة أُهديت إليّ ودواء نافع
من طبيب مشفق، وإن صرف عنه ما يحب قال : شرّاً صرف عني،
فكل ما مسه به من السراء والضراء اهتدى بها طريقاً إليه وانفتح له
منه باب يدخل منه إليه.

إذا كان للناس أُنس بما *** ينالونه من متاع الحياة
فإن سروري وأنسي بمن *** هداني وسيرني في رضا
أسلي فؤادي بالآئه *** ولا أنحني لعظيم سواه

(١) الفواكه الشهية في الخطب المنبرية ص ٣٣ - الشيخ عبد الرحمن السعدي

• قيمة الأُنس بالله :

هناك لحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكناً إلى الله مطمئناً إلى حماه مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة.

ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله.

إن أهل الأُنس بالله هم أرضى الناس بقضاء الله وقدره، يمضي فيهم كما يمضي في غيرهم؛ ولكنَّ الفرق في التلقي والأثر؛ يتلقون مصائب الدهر وكروبه بتسليم وصبر والتجاء إلى الله، فإذا أصابتهم مصيبة قالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة ١٥٦). وإذا اشتدت بهم الكروب تذكروا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف ٨٧)، فقلوبهم موصولة بالله، يشعرون بنفحاته المحيية، فهم لا ييأسون من رَوْحِ الله ولو أحاط بهم الكرب، واشتد بهم الضيق وهم في طمأنينة من ثقتهم بمولاهم، ولو في مخانق الكروب ومضايقها.

فيا أيها الغارق في الذنوب .. يا مَنْ تشتكي عدم الأُنس بعلام الغيوب، تالله لن تتذوق حلاوة الإنس حتى تتطهر من دنس هذه العيوب، وترجع إلى ربك وتتوب .

ويحك .. أحسبت أن الأُنس بالله يأتي بلا سبب ، ويحصل بلا تعب !

كلا .. بل هو ثمرة للطاعة ونتيجة للمحبة ، فمن أطاع الله وامثل أمره واجتنب نهيه وصدق في محبته، وجد للأنس طعمًا وللقرب لذةً وللمناجاة سعادةً .

أما سمعت وصية ابن عطاء الله -رحمه الله- : (كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟!، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟!، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟!)

● مواطن الأنس بالله :

ومواطن الأنس كثيرة فهي تشمل كل ما من شأنه أن يزيد الرغبة في الله وإرادة وجهه، والشوق إلى لقائه ، والتلذذ بعبادته والسرور بطاعته .

وأود أن أقف معك - أخي القاريء- مع ثلاثة مواطن نتحدث عنهم بإيجاز:

١- الصلاة معراج الأنس :

إن الصلاة في حقيقتها نور يضيء ظلام القلوب، ويجلي غشاوة النفوس ؛ لأنها أوثق الصلوات التي تصل العبد بربه وتقربه منه وتعرضه لنفحات الرحمة .

ففي مناجاة العبد لربه في صلاته شحنة روحية تنير قلبه، وتشرح صدره، وتأخذ بيده من الأرض إلى السماء، وتدخله إلى الله بلا باب، وتقفه بين يديه بلا حجاب، فيكلمه بلا ترجمان، ويناجيه فيناجي قريباً غير بعيد، ويستعين به فيستعين بعزيز غير ذليل، ويسأله فيسأل غنياً غير بخيل .

(وفي وقوف المؤمن بين يدي ربه خمس مرات في اليوم وأكثر من ذلك لمن يشاء ، في جو من الطهر والخشوع والتدبر والصفاء، تربية عملية على الإحساس بالصلة المباشرة بينه وبين الله لها أثرها العميق في النفس، ولا يزال المؤمن يجاهد نفسه وهواه حتى يصل إلى الإحساس بلذة القرب والمناجاة ، فتصبح الصلاة في حسه لقاء تهفو إليه نفسه وتجد فيها الأُنس والسكينة والراحة .. والرسول ﷺ هو المثل الكامل للصلة بالله ، فكان يجد في الصلاة قرة العين ، وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ويقول: أرحنا يا بلال وهو إحساس العابد الذي يرى الصلاة لقاء بينه وبين الله) (١)

● من أسرار الصلاة :

إن العبد إذا وقف بين يدي ربه في اليوم خمس مرات متذلاً بين يديه أثناء صلاته مبتدأً بحمده وثنائه؛ (تقطعت قواه الروحية، وأحس بأن الله يمدّه بالقوة والعون، وأنه سبحانه لا يتخلى عنه، فتقوى

(١) منهج القرآن في التربية ص ١٩٠-١٩١ محمد شديد

عزيمته، وتشتد إرادته، ويمضي إلى غايته دون تردد أو ضعف مهما
اعترضته الصعاب أو واجهته العقبات.. كما أن الصلاة انتزاع للنفس
من ماديات الحياة وآلامها، وتوجيه لها إلى الله بالذكر، والدعاء
، والضراعة، والخضوع لكبريائه وعظمته. وهذا من شأنه أن يضيفي
على النفس السكينة والرضا، ويجعلها تشعر بفيض من السعادة
فتتجدد قواها، ويحفزها ذلك إلى العمل الجاد والأمل في وجه الله
الكريم) (١)

وما أجمل قول الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني (رحمه الله) :

فالمصلى صلاته من المستوى الرفيع يكون متقلباً بين تعبيرات
تأمل وتعبيرات خشوع وحب لله ، وتعبيرات حمد وتعظيم وإجلال،
وتعبيرات تضرع ودعاء، وجسمه وأعضاؤه كلها في الخشوع الكامل
سواء أكان قائماً في الذكر والتلاوة ، أو كان راکعاً خاضعاً في التسبيح
باسم الرب العظيم ، أو كان ساجداً متضرعاً في التسبيح باسم الرب
الأعلى.. ومن أجل هذا كانت فريضة الصلاة حصّة زمنية يسيرة من
يومنّا نتوجه فيها إلى بارئنا فنستمد منه غذاء أرواحنا وعقولنا وقلوبنا
ونفوسنا وأجسادنا) (٢)

(١) إسلامنا ص ١٠٣-١٠٤ - السيد سابق

(٢) إبتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة ص ٢٦٥

فيا ليت شعري .. لو علم الغافل ما في الصلاة من استقرار نفسي
وانسجام عقلي كلها ممزوجة براحة الضمير وشعور بالسعادة
وإشباع في العاطفة وطمأنينة للروح ! ..

لو علم الغافل أن في الصلاة راحةً من كل تعب وهدوء من كل
صخب وسعادة من كل شقاء ! ..

لو علم كل ذلك ما نقرها نقر الديكة ولا خطفها خطف
الغراب ، ولا أداها بغير سكون وطمأنينة واحتساب .. فستان شتان
بين سجود الأحباب وسجود الأخشاب !

٢- وفي تلاوة القرآن لذة :

إن الحياة مع القرآن تستجيش الحسّ، وتفتح القلب، وتمنح الروح شفافيّتها ؛ لأنها تعيش مع النور الرباني المنزل في الكتاب ، فيخف الإنسان من ثقله الجسد وجذبة الأرض .

فالقرآن شفاء معنوي وحسي فهو طمأنينة القلوب، وسكينة النفوس، وهداية العقول، واستقامة السلوك وهو راحة النفس ولذة الروح، وهو الذي يقع به للمرء من الهناء والسعادة ما لا يكون إلا به، وبالارتباط معه، وباليقين بما جاء فيه، وبترطيب اللسان بتلاوته، وبتشنيف الآذان بسماعه، وبإحياء القلوب بالتفاعل معه، وبتشغيل العقول بالتدبر والتأمل فيه .

● حتى يكون القرآن شفاء :

والقرآن شفاء وهدى ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء ٨٢)

ولكن لمن هذا الشفاء؟! إنه هدى وشفاء لمن آمنوا به وتدبروه ووقفوا يسترشدون بآياته يقرؤونه غصّاً طريّاً كما أنزل ، فيستشعرون فيه مناجاتهم لله ومناجاة الله لهم، ويجدون فيه عظمة ربهم (سبحانه)، يجدون فيه رغبتهم ورهبتهم، يفرحون بوعوده ويرتعدون لوعيده ، ترتفع قلوبهم في روضات الجنات من آياته وتهتز نفوسهم

وتتشعر قلوبهم من لفحات جهنم في زواجره وعقوباته، تنهل الدموع وتهتز الضلوع لعظيم وعظه وإحكام معناه ولفظه .

أخي في الله ..

هل قرأت القرآن يوماً بهذا الشعور؟ .. هل اهتز قلبك عند تلاوة القرآن لجلاله وزُلزلت نفسك لرهبته؟ ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر ٢٣)

هل أشرق قلبك وتفتح لتلقي ما في القرآن من أنوار وهدايات ؛ فاستشعرت حاجتك إلى مواعظه في شفاء أدواء نفسك وآفات قلبك؟ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٥٧)

هل أحسست يوماً بعد قراءة القرآن أن الله عز وجل أحب إليك من كل ما سواه، ورضاه أثر عندك من رضا كل ما سواه، وأن الشوق إليه والأنس به هو غذاء نفسك وقوتها ودواؤها؟

واسأل نفسك ..

هل اقتصررت علاقتك بالقرآن على مجرد التلاوة فقط ، نعد حسنات وتُحصي خيرات.. مواعظ تتلى، وعبرٌ تسمع، وسور تُقرأ، ولكنها تدخل من الأذن اليمنى وتخرج من اليسرى؟

إذا كانت علاقتك بالقرآن قاصرة علي ذلك، فانتبه ؛ لأنك لن تستشعر حلاوة الأُنس بالله ولن تحس بروعة السكينة والطمأنينة إلا إذا استشعرت في أثناء تلاوتك أنك أنت المخاطب بالآيات وقد وَّجَّهت إليك التكاليفات ، واستحضرت في خاصة نفسك أن الله يأمرك وينهاك، يُوجِّهك ويزجُرُك، يبشرك ويحذرك، يعدك ويتوعدك، تستحضر في كل ذلك أنه يراك وينظر إليك ويراقبك .

● حق تلاوته :

إن المؤمن يتلو كتاب ربه مستشعرًا لآيات الله، متأثرًا بها، متدبرًا لمعانيها ومضامينها، إن أصابه همٌّ فزع إليه، أو لحقته شدةٌ استعان به، أو غابت عنه فائدةٌ استنهلها منه؛ فالقرآن لصاحبه كالجراب المملوء مسكًا يفوح منه العطر حالما فتحه، وحينها يعيش القلب سعادةً لا مثل لها وهو يتلو القرآن حق تلاوته .

إنني أريد وأنا أقرأ القرآن أن أستشعر فقري الشديد للاستشفاء بهداياته ، والتخلق بإرشاداته ، والاهتداء بأنواره .

✓ أريد من كل آية من آيات القرآن أن تسكب في قلبي حلاوة الإيمان وبرد اليقين وروعة الأُنس بالله والثقة فيه والتوكل عليه .

✓ أريد عند استحكام قيود الذنوب والأوزار أن أتذكر النداء
الكريم من رب ودود رحيم يخاطبني وأنا في قمة لحظات الهم
والضيق بقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا
مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾
(الزمر ٥٣).

✓ أريد عندما أقرأ آيات تتحدث عن نعيم الجنان أن يمتلىء
قلبي بمشاعر الرجاء والاشتياق.. وعندما أقرأ آيات تنذرنى بلفحات
النيران أن يمتلىء قلبي بمشاعر الخوف والإشفاق.

✓ أريد عندما أقع في براثن الشيطان وتجذبني نوازع الهوى
ويغلبني طغيان الشهوة أن أتذكر الحصن الآمن والدرع الواقى ..
التقوى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ
مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف ٢٠١)

✓ أريد عند تكاثف سحب الهموم والغموم أن أتلو قول ربي:
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾
(الرعد ٢٨).. فيطمئن قلبي ويسكن، فيجد الأمن من كل غم وهم
وحزن، فيستقر بعد التذبذب، ويهدأ بعد التمزق، ويثبت بعد
الاضطراب.

✓ أريد في لحظات الضيق والكره واليأس والإحباط أن أقرأ
سورة يوسف فأجد فيها انتظار الفرج وحسن الظن بالله، والفأل

الحسن والاستكانة إلى موعود الله، والرضا بأمره، والسكون إلى اختياره، والاطمئنان إلى جميل صنعه .

✓ أريد في أوقات الألم والشدائد أن أتذكر ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (النحل ١٢٧)، وأن أعترف من يناييع ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف ١٨)، وأن أستمع بلذة ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد ٢٤)؛ فيمتلىء قلبي بالسكينة والطمأنينة، وتهوّن عليه وقع المصائب وإن عظمت، ويُفتح لي باباً واسعاً من الأمل والرجاء فيما هو خير عند الله وأبقى.

وهكذا كل آية من آيات القرآن الكريم لها دور عظيم أستحضرها في كل أوقات حياتي.. في اليسر والعسر.. في الشدة والرخاء .. في الطاعة والمعصية.. في أحوال القرب من الله والبعد عنه .. في حالات قوة الإيمان وضعفه ..

وهكذا (يجد صاحب القرآن العارف بآياته المحب لكلماته وقفاً ومشاعراً وأثاراً كلما تفاعل مع سوره ومر بأجزائه وأحزابه، فهو يوجل قلبه تعظيماً وإجلالاً لربه إذا رتل (سورة الأنعام)، ويذوب فؤاده شوقاً لمولاه المنان وهو يتلو (سورة الرحمن)، ويزداد حمده وشكره وامتنانه وهو يطالع نعم الله وآلائه في (سورة النحل)، ثم ترتعد نفسه خوفاً وطمعاً وهو يتلو (سورة الرعد)، وتعلو همته ويزداد يقينه وهو يتأمل تلك المفاصلة الخالدة بين أئمة

الحق وسدنة الباطل في (سورة إبراهيم)، ويعجب لذلك اللطف الجميل في (سورة يوسف)، ويزداد انبهاراً بفتوحات الله تفرج الكروب عن موسى عليه السلام في (سورة القصص)، ثم يلين قلبه حين يغمره ضياء (سورة النور)، ويذرف الدمعات الخاشعات وهو يتأمل شكوى حبيبه ﷺ ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (١)

أواه على لحظات قلق واضطراب ، وهم وضيق ، ووحشة وكره التهمت أعمارنا ، ونغصت علينا معيشتنا ، وشغلت قلوبنا وأنهكت أرواحنا ، وكنا نحتاج فيها فقط لجرعات شافية من آيات القرآن!

تباً للغفلة المزمنة ، والشهوة المستحكمة ، والزينة البراقة ، والهوى المُمزِن الذي شغلنا عن مداواة جراحات القلب وأدواء الروح عبر معين آيات قرآنية مررنا عليها كثيراً ولم نتذوق حلاوتها أو نهتدي بأنوارها!

(١) صاحبك القرآن ص ١٣٢-١٣٣ بتصرف - د. محمد علي يوسف

٣- الدعاء مصدر الطمأنينة :

إن الإنسان الذي ذاق لذة العبودية يلدُّ له أن يناجِي الله عز وجل بما يعبرُّ عن هويته، عبداً مسكيناً بائساً يقف على باب الله عز وجل سواء أجابه الله إلى حاجاته أم لم يجبه، فهو شفى غليله بالتعبير عن ذله وعن عبوديته ومملوكيته لله عز وجل.

ومن هنا عرّف الدعاء بأنه العبادة ؛ لأنه مفرع العبد إلى ربه ، وفيه يتجلى ضعف العبد وانكساره وذله أمام قدرة الله وعظمته وجلاله فهو في صميمه عبادة خالصة ، وابتهاش خاشع ، وولاء واستسلام . فإذا أفضى الإنسان المحزون والمكروب والذي يواجه المشاق والمصاعب إلى ربه ما يعانیه وطلب منه سبحانه ما يبتغيه فإنه يشعر بطمأنينة قلبية ونفحة روحية تنشله مما هو فيه من الهم والضيق.

وفي إحساس المؤمن بحفظ الله ورعايته وأنه يستمع إليه إذا شكأ، ويجيبه إذا دعا، ويأخذه بيده إذا كبا، ويمده إذا ضعف، ويعينه إذا احتاج إحساس يملأ النفس سكينه وراحة، ويخلق فيها القوة والعزم والثقة.

• هل تذوقت حلاوة الدعاء ؟

الدعاء بوابة العبد إلى السماء، تُستنزَل به النعماء، ويُستدفع به البلاء، يطلب به العبدُ حوائجه، ويزيل به مواجعه، فعبره بتحقيق -

بمشيئة الله - الآمال، وتذهب الآلام، والدعاء طريق إلى راحة النفس واطمئنانها، وسرور القلب وسكونه، وهو باب مفتوح يلججه المخلوق إلى خالقه الذي يحب من ولج هذا الباب وفتح، واستمر فيه وألح ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة ١٨٦)

ألا ما أروع الدعاء! به يكمل الرجاء، ويعظم الأمل، ويزداد الطمع، ويتجلى الإفتقار، ويظهر الخشوع، ويزيد الخضوع، ويشد الإنكسار لعظمة الجبار، فالمؤمن لاهج بذكر ربه، مكثر للدعاء، مؤمل في العطاء، متصل بالسماء.

أخي ..

كم من حاجة دينية ، أو دنيوية ألجأتك إلى كثرة التضرع واللجأ إلى الله والاضطرار إليه ، وكم من دعوة رفع الله بها المكاره وأنواع المضار وجلب بها الخيرات والبركات والمسار! .. وكم تعرض العبد لنفحات الكريم في ساعات الليل والنهار ، فأصابته نفحة منها في ساعة إجابة ، فسعد بها وأفلح والتحق بالأبرار .. وكم ضرع تائب فتاب عليه وغفر له الخطايا والأوزار! وكم دعاه مضطر فكشف عنه السوء وزال عنه الاضطرار .. وكم لجأ إليه مستغيث فأعاثه بخيره المدرار!

إن كلمة (يارب)..يهتف بها قلبك خاشعاً مخلصاً ، فتخدم نيران القلق ، وتزول وحشة الألم ، وتذهب هموم الروح..

فيا لسعادة القلب وأنس خاطر بصلته بمولاه الجبار في لحظات
الاضطرار عندما تتفجر ينابيع الافتقار؛ لتملاً القلب بالغيث المدرار
بعد طول اشتياق لتمنحه السكون والاستقرار.

ومن أروع ما في الدعاء - خاصة مع كثرة التضرع والإلحاح -
أنه يمنحك طاقة إيجابية تحطم قيود الوهن والعجز، فتفجر قدراتك
وتتحرر إمكانياتك، تفتح لك الأبواب المغلقة لكثير من المعضلات
التي توهمت أن عناكب اليأس قد عششت على أفعالها!

أخى في الله ...

في محراب الدعاء تستطيع أن تشكو له - سبحانه - عجزك
وضعفك وقلة حيلتك وعدم قدرتك على اتخاذ الأسباب ..
تستطيع أن تشكو له استحكام أفعال اليأس وسلاسل العجز ،
وتسلط الشيطان وفنور الإيمان وكثرة التمرد والعصيان .

باختصار أظهر له إفلاسك وافتقارك!

صدقني كل النجاحات التي حققتها في حياتي انطلقت شرارتها
الأولى عبر بوابة الإفلاس التام والعجز المطلق!

فلا تتوقف عن (الدعاء) مهما بدت الطرق أمامك مسدودة ، أو
الأمنيات مستحيلة؛ فحاجتك لصلاح قلبك وتركيز نفسك وسمو
روحك عبر دعاء خاشع أعظم من الاستجابة لطلبك وتحقيق
رغبتك، وهذا ما يدفع الشيطان ليغرقك في بحار اليأس والعجز عند
تأخر الإجابة؛ لأنه يدرك قيمة الدعاء في تحقيق الارتقاء في العبادة.



سلسيل الذكر

لا شيء أحلى وألذ من ذكر الله عند المؤمنين؛ إذ هو محبوبهم وملجأ راحتهم، وعلى قدر المعرفة والعلم بالله يكون ذكر العبد لربه، وتنعمه به.

وما أجمل قول الإمام ابن تيمية رحمه الله: (الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء!) (١)

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٤٣ - الإمام ابن القيم

• حصن الذكر :

في لحظات الغفلة والنسيان يصبح القلب أكثر عرضة لغزوات الشيطان ؛ يفترس إيمانه ، وينهش تقواه، يثبطه عن الطاعة ، ويزين له المعصية ، ويحرمه من أنوار التوبة .

ولا ينقذ العبد من هذا السقوط المروع إلا أن يرتبط قلبه بخالقه ومولاه.

وهل هناك من سبيل أيسر وأقرب لهذا الارتباط من ذكر الله تعالى؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (الأحزاب ٤١)

إن الذكر الكثير هو الذي يقذف النور في كل أعمال الإنسان ويغمرها بالضياء، ولهذا فإن القرآن أمر المؤمنين أن يذكروا الله على كل حال:

✓ يذكروه أثناء العبادة، بحضور القلب والإخلاص في العبادة.

✓ يذكروه عند الإقدام على المعصية فيتجنبوها، وإذا ما بدرت

منهم عشرة وهفوة بادروا إلى التوبة، ورجعوا إلى طريق الحق ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ وَإِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران ١٣٥)

✓ يذكروه عند النعم فيشكروه عليها.

✓ يذكروه عند البلياء والمصائب فيصبروا عليها ويتحمّلوها.

وهكذا .. عندما يُذكر اسم الله (تعالى) يتجلّى في قلب الإنسان عالم من العظمة والقدرة والعلم والحكمة، لأنّ له سبحانه الأسماء الحسنى والصفات العليا، وله كلّ الكمالات، ومنزّه عن كلّ عيب ونقص.

• الذكر طمأنينة القلب :

وهل هناك من نسعد بذكره أفضل منه سبحانه ؟ إنها سعادة لا تسمو عليها سعادة ، إنها قرب من الله وأنس به واطمئنان الى جنبه، وانسراح الصدور بنوره، وأمن وأمان وتفويض وإسلام الأمر له سبحانه ، لا خوف ولا قلق، لا حيرة ولا اضطراب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد ٢٨)

واعجابه .. كيف تغفل القلوب المكلومة والحزينة عن هذا الدواء الناجع والمجرب الذي تجد فيه السكينة بعد القلق والحيرة ، والأنس بعد الوحشة، والأمل بعد اليأس، واليقين بعد الريبة ، والسعادة بعد الحزن، والأمل بعد الألم .. إنه ذكر الله عز وجل بمعناه الواسع الشامل.. ذكر صاحب الجلال والكمال والعظمة والسلطان، ذكر من يهيمن على هذا الكون هيمنة مطلقة ومشية نافذة ، ذكر من يقول للشيء كن فيكون ، ذكر من يطعم المرء في

رحمته ، ويعتصم بجلاله، ويحتّمى بحماه، ويلوذ بفضله من هموم الدنيا ومن ظلم الظالمين، ووساوس الشياطين . فهل جربت هذا الدواء؟!

• الذكر المطلوب : (١)

(وليس ذكر الله الذي تطمئن به القلوب هو هذا الذكر الذي تردده الألسنة ترديداً آلياً دون أن يكون منبعثاً من القلب ، دافعاً بحرارة الإيمان ، منطلقاً بقوة اليقين ، فمثل هذا الذكر لا يعدو أن يكون أصواتاً مرددة أشبه بالجثث الهامدة لا روح فيه ومن هنا تكون آفته، فلا يطمئن به قلب ولا ينشرح به صدر.. إنما الذكر الحقيقي هو نبضات قلب معمور بالإيمان بالله، وخفقات وجدان ريان بالرجاء في الله، والطمع في فضله وإحسانه فتتهزّ له المشاعر وتدفاً به الصدور وتطمئن به القلوب .

ولا يكون الذكر لله ذكراً يثمر هذه الثمرة التي يطمئن بها القلب إلا إذا انبعث من قلب عارف بالله مدرك لما ينبغي له سبحانه من صفات الكمال والجلال فذلك هو الذي يفيض على القلب خشية عند ذكر الله ، وهو الذي يستثير مشاعر الولاء لله والإحبات له ، فتتشعر الجلود ، وتدمع العيون .. فإذا ذكر المؤمن ربه وقد تلبست

(١) راجع التفسير القرآني للقرآن - ج٧ / ١١٠-١١٦ - د. عبد الكريم

به تلك الحال واستولت عليه هذه المشاعر، قرب من الله، ودنا من مواقع رحمته ، وأحسّ برد السكينة يغمر قلبه، ووجد ريح الأمن والطمأنينة تهبّ عليه، معطرة الأنفاس ، زاكية الأرواح .

فإذا ذكر الإنسان ربّه هذا الذكر الذي يدنيه منه سبحانه، والذي يشهد منه ما يشهد من جلال الله وعظمته وقدرته ارتفع عن هذا العالم الترابيّ واستصغر كل شيء فيه ، فلا يأسى على فائت ولا يطير فرحاً ولا بطراً بما يقع ليديه من حطام هذه الدنيا .

وهذا هو الاطمئنان الذي يسكن به القلب وتقرّ العين حيث لا حزن ، ولا جزع ، ولا خوف)

يقول الله تعالى في الحديث القدسي : (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم) (١)

(١) البخاري (٦٩٧٠) ومسلم (٢٦٧٥)

• من نفحات الذكر :

✓ ألا ما أروع ذكر الله ! حصنٌ للنفس حصينٌ من سطوة الأهواء وهيجانها، وسلاح المؤمن الفعال في مواجهة الشيطان ووساوسه، وهو قوت للقلوب وسلوة للنفوس وبهجة للضمائر، وغذاءٌ للروح، وعلاج لها من عللها وأدوائها ولا علاج لها منها على الحقيقة سواه (١)

✓ ألا ما أروع ذكر الله! عندما يتذكر المؤمن ربه في جميع حالاته : في سرائه وضرائه، وفي شدته ورضائه، وفي صحته وسقمه، وفي طاعته ومعصيته؛ أسند كل أمر إلى مصدره واطمأن إلى حكمة الله فيما نزل به، فسكن قلبه واستراح من الهم والحزن على ما فاته . واحسرتاه على الغافل .. لا يستشعر آيات الله وصفاته في محنة ولا نعمة ولا في طاعة ولا معصية، يشقى حتى في النعمة ويضل حتى في الطاعة. فإن أصابته محنة لم يجد ملجأً ولا مفرعاً، وتضييق الدنيا في وجهه وتتراكم خواطر الشر والسوء في عقله، ويستولى عليه اليأس والقنوط ، وإذا ناله خير استقبله بالأشر والبطر والزهو والغرور، وفي غفلة عن ذكر الله يستخدم نعم الله لمعصيته، ولهذا يعرض النعمة للزوال .

(١) ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أكثر من مئة فائدة لذكر الله تعالى في كتابه النفيس : (الوابل الصيب من الكلم الطيب) فارجع إليها وتأملها لتجني من وراء ذلك ثمرات عظيمة ولطائف نفيسة .

فيا ليت الغافل يسمع ويعي وصية النبي ﷺ :

(ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم) قالوا: بلى، قال: (ذكر الله تعالى) (١)

فيأيها المعرضون عن ذكر الله .. ألم يقرع أسماعكم قول ربكم ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (الزخرف ٣٦-٣٧) .

ألا فانتبهوا وتدبروا ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر ١٩)

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)

وانفجرت عين التوكل

(في التوكل طمأنينةٌ تغشى القلبَ وتربُّطٌ عليه، وتجعله
أسكنَ وأوثقَ ما يكونُ وإن هجمتْ عليه جيوشُ الهمومِ، إذ
تعلَّقَهُ بَمَن بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ وأمرُهُ بالكافِ والنونِ؛
فأنى لقلبِ المتوكلِّ وقد ترَبَّعَ عرشُ التوكلِ فيه أن تتسربَ
لقلبه ظلمةُ اليأسِ، أو يتملِّكه وثاقُ القنوطِ، أو تستخفُّه
عجلةُ المرتابينِ) (١)

د. محمد عبد الله السحيم

(١) من مقال (راحة التوكل) - شبكة الألوكة

• حاجة الإنسان إلي مولاه :

إن الإنسان مخلوق ضعيف لا يمكنه أن يحمي نفسه من هجمة حيوان مفترس أو حتى لدغة حشرة صغيرة .. ضعيف أمام رغبات نفسه من حب للشهوات، ونفور من التكاليف والمشاق .. ضعيف أمام وساوس الشيطان وإغراءته .. ضعيف أمام نوازع الهوى وملذات الدنيا .. ضعيف أمام المرض والألم ﴿وُخْلِِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء ٢٨) .. هذا الضعف المتعدد الجوانب من شأنه أن يجعله دائماً بحاجة إلى مصدر للقوة يلجأ إليه ليحتمي به ويدفع عنه كل ما يثير مخاوفه ويعكر صفوه ..

وهل هناك ملجأً ومعين يلجأ إليه العبد إلا الله ؟ هل هناك حصن يحمي فيه المؤمن يقيه مما يخاف ويكره إلا حصن التوكل ؟

أرأيت إلى السمكة تضطرب وتضيق صدرها إذا هي خرجت من الماء وأضحت مهددةً بانقطاع الحياة، فإذا هي ماتت سكنت ولم يبد منها أدنى اضطراب ؟ .. كذلك العبد إذا تخلى الله عز وجل عنه ووكله إلى نفسه ضاع وهلك.

لو أن طفلاً كان يسير في الطريق، فلحق به عدو من إنسان أو حيوان يريد إيقاع السوء به وأذاه، وبينما هو على أشد ما يكون من الخوف والذعر، ألقى أباه قادمًا نحوه، أفتراه والحالة هذه يلتجئ ويحتمي، وإن شئت فقل أيعوذ بغير أبيه؟ إنه يعوذ به، لأنه يعلم حبه وإخلاصه وقوته

على دفع عدوّه عنه، وكذلك المؤمن الحق - والله المثل الأعلى - ما عليه إلا أن يعوذ بربه ويقبل عليه بنفسه ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران ١٠١)

• حقيقة التوكل :

إن التوكل على الله تعالى عمل قلبي، يتبعه عمل بدني، ومعناه: (صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، وتفويض الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع سواه) (١).

فالمتوكل على الله توكلاً صادقاً يعتقد اعتقاداً جازماً بأن كل شيء بيد الله، فنيل آماله لا يتحقق إلا بالله، وإذهاب آلامه لا يكون إلا بالله.

ومن كان كذلك صار قلبه متحرراً من التعلق بالخلق رغبة ورهبة، وأصبح ينظر إلى السماء تاركاً أهل الأرض؛ إذ إنهم لا ينفعون ولا يضرّون إلا بإرادة الله تعالى.

فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: (احفظِ الله يحفظَكَ، احفظِ الله تجدُهُ تُجاهَكَ، إذا سألتِ فاسألِ الله، وإذا استعنتِ فاستعنْ بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن

(١) جامع العلوم والحكم ج ٢ / ٥١ - ابن رجب الحنبلي .

ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ، لم يضروك بشيءٍ إلا قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأَفْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ(١).

● اطمئن.. فأنت في رعاية الوكيل سبحانه :

إن المؤمن عندما يتدبر اسم الله الوكيل ويفهمه جيداً (يحفر له في قلبه مكاناً لا يفارقه أبداً ؛ لأن فيه سكينته وراحته وهدايته ؛ فهو الاسم الذي يُلقِي ظلاله على العقل فيمنحه رشده ويوقفه عند حده، ويمنعه من التمادي في التفكير الجارف في يومه وفي غده، ويحول بينه وبين عواصف الهم والغم والحزن، وينحي عنه أشباح الهواجس النفسية، والوساوس الشيطانية، ويجعله قادراً على تلمس المخارج من المضائق المحرجة، ويتخذ سبيله نحو ما آمن يلجأ إليه ويستريح فيه من عناء الفكر المتواصل في أمور دبرها له خالقه ومولاه قبل أن يخلق السموات والأرض.

إن إحساس المؤمن بأن الله عز وجل قد تكفل بتدبير أمره - يجعله قادراً على التكيف مع الظروف التي يعيش فيها من غير جزع أو هلع، ويدفعه إلى مواجهة الحياة بخيرها وشرها بعزم صادق لا يعرف اليأس، وهمة عالية لا يعترئها خلل أو ملل؛ فالله هو الوكيل الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، يُدبّر

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩) وصححه الألباني (١٤٢٠)

شئون خلقه بحكمته، ويصرف أمور عبادته بمشيئته، ليس لأحد معه إرادة ولا خيرة) (١)

(لو علم المرء أن فلاناً من المسؤولين هو المتكفل بمعاملته لتنفس اليقين وفرغ قلبه من الشك بتحقق مطلبه، فكيف يفوت المرء على نفسه أن يكون الله خالق هذه الحاجات، والخالق لسبل قضائها، والخالق لموانعها، هو الذي سيتكفل بأمرك إذا توكلت عليه: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}. يتحدث المتوكلون عن أذواق لهم يشعرون بها لا يتصورها المحبوسون في زنازين خطاياهم مثلنا، فمن أراد أن يعرف ما هي (الطمأنينة)، وما هي (السكينة)، وأي شيء هو (راحة البال)، فليجرب التوكل.. هل تظن رجلاً قلبه معلقٌ بملك الملوك (سبحانه) فوق سبع سماواته يقلقه شيء من مقادير هذه الدنيا؟) (٢)

ألا ما أعظم التوكل علي الله! .. ما أروع انطراح القلب على أعتابه واللجوء إلي جنبه والركون إلى حماه! .. أي يقين يزرعه التوكل في القلب؟ ..

أي سعادة وراحة للبال وسكينة للخاطر تنبع من الاكتفاء بالله؟

(١) أسماء الله الحسني آثارها وأسرارها ص ٢١٧

(٢) راجع كتاب (رفائق القرآن) ص ١٣٩ - ١٥٠ - إبراهيم السكران، تجد فيه ما يسرك بإذن الله .

مَنْ علم أنه فقير إلى ربه في كل أحواله كيف لا يتوكل عليه ؟
وَمَنْ علم أنه عاجز مضطر إلى مولاه كيف لا يستعين به وينيب
إليه ؟

وَمَنْ تيقن أن الأمور كلها بيد الله كيف لا يطلبها ممن هي في
يديه ؟

أخي في الله ..

حسبك الله يكفيك من كل ما أهمك فيحفظك في الأزمان ،
ويرعاك في الملمات ويحميك في المدلهمات ، فلا تخش ولا تخف
ولا تحزن ولا تقلق .. فمن تخاف والوكيل معك ، ومن تخشى
والوكيل ناصرك .

حسبك الله .. إذا ألمَّ بك مرض ، وأرهقك دَيْنٌ ، وأحل بك فقرٌ ،
أو عرضت لك حاجة فلا تحزن ؛ لأن حسبك الله ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ
الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ... ﴾ (الفرقان ٥٨)

● الرضا ثمرة التوكل :

(و حين لا تتحقق النتائج المرجوة بعد اتخاذ الأسباب
المستطاعة، يلاحظ المؤمن أن الله قد قضى له ما هو خير، وادخر له
الأفضل والأحسن، فهو يستقبل عدم تحقيق النتائج التي يريها
بمثل استقباله لها فيما لو تحققت .. وهكذا يكون مطمئن القلب
رضياً ، ويكون في أعماله باذلاً أقصى ما يستطيع ؛ طاعة لأوامر الله في

شريعته وسننه السببية في كونه ،ويكون مع ذلك متفائلاً بأن الله لا يقضي له إلا ما هو خير .

وهكذا يكون المؤمن سببياً في أعماله المادية ،متوكلاً على الله في حركاته النفسية والقلبية ،راضياً بما يقضيه الله مما يحب ومما يكره (١) .

ألا ما أجمل الرضا ! إنه جنة الدنيا، ومستراح العابدين، ونعيم العارفين، وحياة المشتاقين .

والرضا سكون القلب، وراحته، باختيار الله عز وجل، بلا جزع ولا وجع .

والرضا سرورُ القلب بِمُرِّ القضاء، واستقبالُ الأحكام بالفرح، وارتفاع الجَزَع، وانتفاء السخَط .

بالرضا تنال السعادة، وتطمئن القلوب، وتهدأ النفوس، ويهرب القلق، ويختفي الضجر، وتتحول الآلام والشدائد إلى مسرات ولذائد .

وَمَنْ حُرِّمَ نَعِيمَ الرِّضَا؛ فهو في قلقٍ واضطراب، وشقاءٍ وعذاب - خاصة - عندما يَحِلُّ به بلاء، أو تنزل به مصيبة، فتسودُّ الحياة في عينيه، وتُظلم الدنيا في وجهه، وتَضيقُ عليه الأرض بما رَحِبَتْ، ويصبح عرضة لغزوات الشيطان وضربات المتكررة .

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها ص ٨٠١ - الشيخ عبد الرحمن الميداني

غرس شجرة المحبة

سأل رجل الفضيل بن عياض فقال: يا أبا علي، متى يبلغ
الرجل غايته من حب الله تعالى؟ فقال له الفضيل: (إذا كان
عطاؤه ومنعه إياك عندك سواء فقد بلغت الغاية من حبه) (١)

(١) حلية الأولياء ج ٨ / ١١٣

• روح الحياة :

إن حب المؤمن لله (تعالى) مقرون بالإجلال والتعظيم ، إنه حب المملوك لمالكة، حب العبد لسيدته ،حب المخلوق الضعيف لله الواحد القهار.

إن المحبين الصادقين في مقام موزون بين الرجاء والخوف .. فرجاؤهم معلق برحمة الله (تعالى) ولا يخافون إلا الله ، وقد جمع الله (تعالى) أركان هذا المقام الإيماني الإحساني الرفيع في قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (الإسراء ٥٧) فهم يتقربون إلى الله تعالى بحبه وبفعل ما يحبه ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

قال الإمام ابن القيم (رحمه الله) :

(القلب في سبيله إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه ، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر) (١)

(١) المهذب من مدارج السالكين للإمام ابن القيم ص ١٥٣ - إعداد الشيخ صالح الشامي

وما أجمل قول الحارث المحاسبي (رحمه الله) في تعريف المحبة :

(المحبة تسليمك إلى المحبوب بكليتك ، ثم إثارك له على نفسك وروحك ، ثم موافقته سرّاً وجهراً ، ثم علمك بتقصيرك في حبه) (١)

(وإنّ لون الحبّ أجمع لون لألوان العبوديّة الصادقة إنه كلون الطيف الذي يجمع الألوان كلها في لون واحد ، هو لون البياض وشفافيّته وإشراقه .. إنه يجمع الخوف والرجاء ، والصدق والعلم ، والصبر والشكر ، والتسليم والتعظيم ، والتوكّل واليقين ، والأنس والرضا ، والإحسان والمراقبة ، إنّه حصن المؤمن من فتنة الدنيا ، ومن فتن الأهواء والشهوات ، التي تعصف بالعقول والقلوب .. والمحبّ يتقلّب في كلّ أحواله بين خوف وقلق ، وخشية وإشفاق ، وشوق ورجاء .. خوف أن يؤخذ بذنبه ، ويفضح بتقصيره ، وخشية غالبية ألا يقبل منه عمل ، وألا يفلح له سعي وأمل .. وشوق ورجاء ، عندما يقف في ساحة الجود والرحمة ، والفضل والعطاء .. قد قيدت حركاته وسكناته قيود الأدب ، ورسمت علاقاته حدود الاتّباع) (٢)

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ج ١ / ٣٩٠ - ابن جزى الكلبي

(٢) حديث القلب ص ٣٩ - د. عبدالمجيد البيانوني

• لهذا أحب ربي :

إن أساس محبة الله (تعالى) هو الشعور بفضله ونعمته، وإحسانه ورحمته، والإحساس بجماله وكماله، فمن كان يحب (الإحسان) فالله هو واهبه وصاحبه، ومن كان يحب (الجمال) فالله هو مصدره، ومن كان يحب (الكمال) فلا كمال في الحقيقة إلا كماله، ومن كان يحب (ذاته)، فالله هو خالقه.

لذلك فليس في الوجود مَنْ هو أجدر من الله تعالى بأن يُحِب، فهو صاحب الفضل والإحسان، فإحسانه عليك في إفاضة وجودك، وإعطائك ضرورياتك وحاجياتك وكمالياتك: من عقلك، وسمعك، وبصرك، وذوقك، وجميع حواسك، وصفاتك الظاهرة والباطنة - هذه الإحسانات الفائضة، والمنن المتواترة لا تكاد تحصى أصنافها فضلاً عن جزئياتها.

فمن أولى من الله بأن يُحِب؟ ومن يحب الإنسان إذن إن لم يحب الله تعالى؟

(إن المؤمن الحق هو الذي أدرك جمال الله وجلاله، وأدرك لطفه وإحسانه وعَلِمَ عِلْمَ اليقين أنه (سبحانه) هو المنعم المفيض الذي لا إنعام إلا به ولا فيض إلا منه، ثم انفعَل بهذا الإدراك فأحبه فأصبح قلبه مشغولاً به وعمله موجهًا إليه ولذته وارتياحه في طاعته وعدم المخالفة عن أمره .. يتحمل في ذلك ما يتحمل معتبطاً قوياً

العين مطمئن القلب ثابت الخطا ، فإذا أحسن إليه حبيبه تلقى هذا الإحسان شاكراً بقلبه ولسانه وفعله، وإذا ناله شيء في سبيل مرضاته تلقاه صابراً عليه غير متبرم به ولا ضائق به صدرًا (١)

الآما أروع المحبة !

إنها روح الحياة ، وطعم الوجود، ولذة الدنيا ، وبهجة القلب .

إنها (المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخصصّ العاملون، وإلى علمها شمّر السابقون، وعليها تفانى المحبّون، وبروح نسيمها تروّح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرّة العيون، وهي الحياة التي من حُرّمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلّت بقلبه جميع الأَسقام) (٢)

• يحبهم ويحبونه :

لقد (أخبر الله عن أوليائه الصادقين، وعباده الصالحين، بأنه

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة ٥٤) وهو خبر تهش له نفس المؤمن والعجيب قول: ﴿ يُحِبُّهُمْ ﴾ فهو الذي خلقهم وأطعمهم

(١) الحب بين العبد والرب ص ١١٧ - الشيخ أحمد نصيب المحاميد

(٢) المهذب من مدارج السالكين للإمام ابن القيم ص ٣٢٣

وسقاهم وكفاهم وآواهم ثم أحبهم، وهو الذي رباهم وهداهم
وعلمهم وألهمهم وأرشدهم ثم أحبهم، وهو الذي أنزل عليهم
الكتاب وأرسل إليهم الرسل وأوضح لهم الحجة، ثم أحبهم ..

فيا له من فضل عظيم، ومن عطاء جسيم... فليت من له مقام في
دنيا المحبين أن يتذوق هذه اللفظة المشرقة، وأن ينقلها رسالة قوية
لعشاق الفن محبي العيون السود، والحدود؛ ليعلموا أن حبهم
منقوص هابط، وحياتهم زاوية ذابلة، وقلوبهم خاوية خربة، ونفوسهم
ظالمة ظامئة، وبصائرهم كسيفة كليلة، أما حب أولياء الله فهو الحب
الصادق الصائب الطيب الطاهر الزكي النافع) (١)

ومن أحبه الله فلا تسأل عما هو فيه من غبطة وسرور مما ينتزل
عليه من ربه من سكينته ، وما يفيض عليه من نفحات وبركات .
ولعلك تسأل عن الأسباب الموصلة إلى تلك المحبة ؟

والإجابة عند الإمام ابن القيم (رحمه الله) وهي عشرة أسباب :

- ١- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به؛ فهو رسائل
إليك من ربك تسكب النور في روحك ، وتزيل الغشاوة عن قلبك .
- ٢- التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض مصداقاً لقول
النبي ﷺ : (ما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا
أحبهته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به، ويده التي

(١) على بوابة الوحي ص١٢٦-١٢٧ بتصرف - د. عائض القرني

يبتش بها ، ورجله التي يمشى بها ، وإن سألني أعطيته ، وإن
استعاذني لأعيذته(١)

٣- دوام ذكره سبحانه على كل حال؛ باللسان والقلب والعمل
والحال، فنصيئه من المحبة على قدر نصيبه من الذكر.

٤- إيثار محابته على محابك عند غلبات الهوى والتهاب
الشهوات ، وعلامة هذا الإيثار شيئان: فعل ما يحبه الله، ولو كانت
نفسك تكرهه، وترك ما يكرهه الله، ولو كانت نفسك تحبه.

٥- مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها،
وتقلب القلب في رياض هذه المعرفة وميادينها؛ فمن عرف الله
بأسمائه وصفاته وأفعاله، أحبه لا محالة.

٦- مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة؛ فهي
داعيةٌ إلى محبته.

٧- انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى.

٨- الخلوة به تعالى وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه،
والوقوف بالقلب، والتأدب بأدب العبودية بين يديه سبحانه، ثم ختم
ذلك بالاستغفار والتوبة.

٩- مجالسة المحييين الصادقين، والتقاط أطياب ثمرات
كلامهم، كما تنتقي أطياب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة
الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك.

(١) رواه البخاري(٦٥٠٢)

١٠ - مباحدة كل سبب يُحوّل بين القلب وبين الله - جل وعلا -
ويشمل (البدع - المعاصي - فضول المباح) (١)

أخي في الله ..

هل تذوقت حلاوة محبة الله عز وجل ؟ هل شعرت بأثر ذلك في قلبك وجوارحك ؟ .

• لو أحببت الله .. لفاض قلبك بتعظيم الله تعالى وخشيته ، وإجلاله وهيبته ، ولطهرته من التعلق بأحدٍ سواه .

• لو أحببت الله .. لم تأسرك شهوة أو تتحكم فيك نزوة ، ولم تقيدك معصية أو تكبلك خطيئة .

• لو أحببت الله .. لظهرت آثار هذه المحبة على الجوارح من الجدّ في طاعته ، والنشاط لخدمته ، والحرص على مرضاته والشوق إلى لقائه والأنس بذكره ، والاستيحاش من غيره .

• لو أحببت الله .. لفاضت من قلبك قبل أن تفيض من عينيك دمعة فغسلت أوضار ما علق به من الهوى ، وأشرق بها أنوار

(١) المذهب من مدارج السالكين للإمام ابن القيم ص ٣٢٤ - ٣٢٥ بتصرف

القرب والرضا ، ثمّ فاضت من عينيك لتغسل عنهما غبار الذنوب والأوزار.

• **لو أحببت الله..** لتلذذت بمناجاته ، ولسارعت بعد معصيته إلى استرضائه، ولتذوقت لذة تلاوة وتدبر كتابه، ولرضيت بقضائه ولصبرت على بلائه.

هل تدري لماذا لم يتذوق قلبك حلاوة محبته؟!!

لأن قلبك مشغول بالشهوات واقتناص اللذات، والانغماس في مشاهدة الأفلام والمسلسلات، ومطاردة القنوات، والنظر إلي المحرمات والسهر مع المباريات .

ويحك .. سوّدت قلبك بالمعاصي والسيئات ثم تطمع في تذوق هذه النفحات .. هيهات هيهات.

واعجباً لمن يدعي حب الله وهو على معصيته عاكف لا نصيب له في طاعة مولاه ولا هو على حدوده واقف .. ويحك .. هذا حب زائف، وشوق تالف .

حتى لا تذبل زهرة الشكر

(من أكثر ما يُحرم العبد من تذوق حلاوة الشكر هو إلف النعم واعتيادها، فينسى العبد نعم الله (تعالى) عليه الماضية والحاضرة، بل يصل النسيان بالعبد إلى حد أنه قد يتوهم أن تلك النعم مستحقة له ليس لشيء إلا لأنها أُغدقت عليه، ناسياً أن كل نعمة نالها فهي من محض فضل الله (تعالى) عليه، ولا يستحقها لولا رحمة الله (تعالى) به، وعفوه عن ظلمه وعصيانه)

• وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها:

إن الإحساس الدائم بنعم الله وفضله ينمي عاطفة الحب ويؤدي إلى السمو إلى مقام الشكر، فالمؤمن لا تذهله نشوة الفرح بنعمة ينالها عن معرفة الفضل لمسديها، بل يتذكر أن ما أصابه من حسنة فمن الله، لا لاستحقاق بعلم أو حول أو قوة، وإنما هو من فضل ربه ليلبوه أشكر أم يكفر، فإذا ما كملت في نفسه هذه المعرفة وشكر الله بقلبه لم يلبث هذا أن يفيض على لسانه ثناءً على الله بما هو أهله، ثم يفيض علي جوارحه أداءً لحق الله عليه في تلك النعمة على الوجه الذي يرضيه، وهنالك يصدق الله وعده الذي وعده به الشاكرين من المزيد في الدنيا ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم ٧)، ومن المثوبة في الآخرة ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران ١٤٥)

إن آفة الإنسان أنه لا يعرف قيمة النعم إلا عند فقدها، إن سد أنفك الزكام عرفت قيمة الشم، وإن أغلق عينك الرمذ عرفت قيمة البصر، وإن دهمك الخوف عرفت قيمة الأمن، وإن لويت قدمك فلم تقدر أن تمشي عرفت قيمة المشي .

• حقيقة الشكر :

الشكر- كما عرفه الإمام ابن القيم -رحمه الله- : (ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعتراضاً ، وعلى قلبه شهوداً ومحبةً، وعلى جوارحه انقياداً وطاعةً.

والشكر مبني على خمس قواعد لا يكون الشكر تاماً إلا بها :

القاعدة الأولى : خضوع الشاكر للمشكور.

القاعدة الثانية : حبه له .

القاعدة الثالثة : اعترافه بنعمته .

القاعدة الرابعة : ثناؤه عليه بها .

القاعدة الخامسة : أن لا يستعمل نعمه فيما يكره (١)

إن معرفة مصدر النعمة شكر، والثناء عليها شكر، وتوجيهها في الطاعة شكر، ومشاهدة المنّة بها شكر، وحفظ حرّامات المنعم شكر، وامتناء القلب بمحبته شكر، ولهج اللسان بذكره شكر، والتسبيح بحمده شكر.

ولما عرف عدو الله (إبليس) قدر مقام الشكر وأنه من أجلّ المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى في صرف الناس عنه فقال : ﴿ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف ١٧)

(١) المهذب من مدارج السالكين ص ٢٣٦

• الشكر دليل العبودية:

إن الشكر دليل واضح على ثبوت عبودية العبد لربه وقيامه بها على الوجه المطلوب مصداقاً لقول الله عز وجل: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة ١٧٢)

فمن شكر الله (تعالى) بقلبه ولسانه وجوارحه وأتى بما يكمل ذلك؛ فقد عبد ربه وأتى بما أمر به ، ومن أخل بوظيفة الشكر فقد فاته من تحقيق العبودية لرب العالمين بقدر ما فاته من الشكر؛ لأن الشكر هو مظهر العبادة الحقة.

فلن يشكر قلب الله حق شكره حتى يعبده حق عبادته ، ولن يعبده حتى يكون قد شكره على كل نعمة أنعمها عليه .

(فالشكر شعور يفيض به القلب عندما يذكر الإنسان نعم المخلوق - سبحانه وتعالى - تتوارد إليه، ولا يمكن لهذا الشعور أن يفيض به القلب إلا إذا عُرس في تربة العبودية لله - سبحانه وتعالى -، يشعر الإنسان بعبوديته ومملوكيته وبالغ ذلّه لله - سبحانه وتعالى -، وعندئذ إذا تواردت إليه نعم الله عز وجل، عُرسَت هذه المشاعر في تربة عبوديته لله، ومن ثمّ ازدهرت هذه العبودية بالشكر لله - سبحانه وتعالى - سلوكاً وسيراً إلى الله سبحانه وتعالى عن طريق تنفيذ أوامره، والانتهاه عن نواهيه.. لكن الناس الذين غابت مشاعر العبودية لله عز وجل عن قلوبهم هيهات أن يشعروا بهذا المعنى الذي

يبعث النشوة في الرأس وفي النفس، إن شكروا فبكلمات تقليدية تدور بها الألسن، والقلب تائه عنها، والعقل محجوب عنها) (١)

• الرسول ﷺ قدوتنا في الشكر:

إن أعظم الناس شكرًا لله رسول الله ﷺ فهو إمام الشاكرين، وسيد العابدين، لقد امتزج الشكر بأنفاسه، وسار في عروقه، ورسخ في وجدانه، لبس حلّة الشكر، وارتدى برداء الثناء، ونطق لسانه بترانيم الشكر، وعبقت جوارحه بأريج الثناء، وترجم شكره لله بأعمال زاكية، وأفعال رائعة، وأقوال ذائعة، قام حتى تفترت قدماه فقيل له في ذلك: لماذا تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، فلم يزد على الإجابة الشافية، والعبارة الكافية: (أفلا أكون عبدًا شكورًا) (٢)

(١) خطبة الشكر والعبودية لله - د. محمد سعيد البوطي

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩)، وفي قوله

(أفلا أكون عبدًا شكورًا) إشارة للسامع وتذكيرًا للإنسان بمقام العبودية، وأن

المرء مهما بلغ فإن قيمته ومنزلته في عبوديته لله وتذله لمولاه وانطراحه لخالقه.

✓ إذا تناول طعامه - وإن كان من خشن الخبز وجاف الشعير - يتناوله تناول الراضي الشاكر، ويقول (الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا) (١)

✓ وإذا اكتسى ثوباً أو عمامة أو نحو ذلك قال: (اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ) (٢)

✓ وإذا استيقظ من نومه قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور) (٣)

✓ وكان إذا أتاه الأمر يسره قال: (الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا أتاه أمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال) (٤)

(١) البخاري (٥٤٥٨). وقوله: (غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا) يعني: (غير مكفي) = أي نحمده سبحانه حال كونه هو الكافي لعباده، ولا يكفيه أحد من خلقه؛ لأنه لا يحتاج إلى أحد، (ولا مودع) = أي ونحمده سبحانه حال كونه غير متروك، أي لا يتركه منا أحد لحاجتنا جميعاً إليه، (ولا مستغنى عنه) = أن الله تعالى لا يُستغنى عنه، فكل خلقه محتاجون إليه.

(٢) رواه أبو داود (٤٠٢٣) وصححه الألباني

(٣) صحيح البخاري (٦٣١٢)

(٤) أخرجه أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٣) وانظر صحيح الجامع (٤٦٤٠)

✓ وإذا استقبل وجه الصباح قال: (اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك .. فلك الحمد ولك الشكر)(١) .. وإذا أظله المساء قال: مثل ما قال في الصباح.

إن "الحمد لله" كلمة تختصر كلمات الثناء والشكر، والتعظيم والصبر، فما أحسنها وهي تخرج من قلب صابر، أو لسان ذاكراً، أو عبد شاكر، وما أجملها أن تكون حقيقة قلبية لا جملة لسانية فحسب؛ فأصدق الحمد ما نطق به القلب قبل أن يفوه به اللسان.

"الحمد لله" عبارة تحمل في حروفها المضيئة إشراق النفس وامتلاءها بشكر المنعم (سبحانه)، الذي أعطى فأجزل، وورزق وتفضّل.

إن حمد الله يعني: الثناء على الله (تعالى) لصفات كماله، ونعوت جلاله، وآيات جماله، والثناء عليه لإحسانه لعبده، وجميل فعاله به، مع حبه وتعظيمه - تبارك وتعالى.

فيا أيها الغافل.. هل تأملت كم الله عليك من نعمة سابغة في هذه الأعضاء والجوارح والقوى التي فيك وأنت لا تلتفت إليها ولا تشكر الله عليها؟

يا غافلاً عن النعم.. يا مُصراً على جحودك وإعراضك..

(١) سنن أبي داود (٥٠٧٣)

يا منغمساً في شهواتك ورذائل أعمالك.. متى تعود إلى رشدك
وصوابك؟ متى بالحمد ينطق لسانك؟

ويحك.. تفكر في نعم الله الجليلة وفي أعطياته الجزيلة، واشكره
على هذه النعم بقلبك ولسانك وجوارحك عساك أن تكون من
الشاكرين ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ (سبأ ١٣)



اقتلع شجرة اليأس

(اليأس مرض فتاك وجرثومة قاتلة إذا أصاب قلب مؤمن أحرق مهجته وأطفأ نوره وشتت أمره، وإذا تسرب إلى فؤاد امرئ حطمه وأذهب بريقه وساقه إلى حتفه) (١)

د. حسام الدين السامرائي

(١) من مقال مدرسة الأمل - شبكة الألوكة

• لماذا اليأس؟

كثير من الناس عندما يواجه ضغوطات الحياة وصعوباتها، ويكابد همومها وآلامها، ويعجز عن تحمل شدائدتها وأزماتها؛ يتسرب اليأس إلى قلبه فيسد عليه منافذ النور، فيقع في ظلمات العجز والوهن. يتجلى ذلك بوضوح عند الإخفاق في تحقيق إنجاز أو نجاح ما كان يعقد عليه الآمال العريضة، أو عند تكاثف سحب الهموم والأحزان، واشتداد المحن والكربات، وتأخر الفرج واليسر، أو عند الانغماس في أحوال الذنوب والانزلاق في مهاري الشهوات، فيضعف أمله في إمكانية العودة والتمتد. ولعل السبب الرئيس في ذلك اليأس هو ضعف المناعة الإيمانية أو فقدانها .

ففي غياب الإيمان أو ضعفه تصبح نظرة الإنسان للحياة سوداء قاتمة لا تعدو كونها أحزاناً ومصائبَ وفقراً وأمراضاً وبلايا. فهو ينتظر المصيبة ، ويتوقع البلوى، ويترصده الفاجعة، ويتقلب بين أشواك القلق والحرمان، ويعيش في زنزاة اللحظة الحاضرة لا يرى أبعد منها ولا انفكاك عنها، فتشتعل في قلبه نيران اليأس تلتهم إيمانه رويداً رويداً حتى يستولي عليه الهم والحزن والعجز والكسل .

• الإيمان يولد الأمل :

إن المؤمن أوسع الناس أملاً وأكثرهم تفاؤلاً واستبشاراً، وأبعدهم عن التشاؤم والتبرم والضجر، إذ الإيمان معناه: الاعتقاد بقوة عليا تدبّر هذا الكون لا يخفى عليها شيء، ولا تعجز عن شيء، الاعتقاد بقوة غير محصورة، ورحمة غير متناهية، وكرم غير محدود، الاعتقاد بإله قوي قادر عزيز قاهر.. إذا اتجه إليه المسلم فقد اتجه إلى القوة الحقّة الوحيدة في هذا الوجود، وقد أمن كل قوة زائفة واطمأن واستراح ولم يعد يخشى أحداً أو يخاف شيئاً .

وهو إله مدبر حكيم أفعاله سديدة، وصنعه متقن يداول الأيام بين الناس فيبدل من بعد الخوف أمناً، ومن بعد الضعف قوةً، ويجعل من كل ضيق فرجاً، ومن كل هم مخرجاً، ومع كل عسر يسراً .

وهو إله رحيم ودود، غافر الذنب وقابل التوب، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، فالمسلم في كنفه آمن أنس، سالم غانم، مرحوم، إذا ضعف مغفور له متى تاب، وهكذا يمضي المؤمن مع صفات ربه، فيجد في كل صفة ما يؤنس قلبه، وما يطمئن روحه، وما يضمن معه الحماية والوقاية والعطف والرحمة والعزة والمنعة والاستقرار والسلام.

إن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه ، وفي أنس من صلته بربه ،
وفي طمأنينة من ثقته بمولاه وهو في مضايق الشدة ومخائق
الكروب .. فهل يصيبه بعد ذلك يأس أو قنوط !؟

• واليأس توأم الكفر:

إن المرء - حين يضعف في قلبه شعاع الإيمان- إن مسه الشر-
مجرد مس- فقد الأمل والرجاء وظن أن لا مخرج له ولا فرج ،
وتقطعت به الأسباب وضاق صدره وكبر همه، ويئس من رحمة الله
وقنط من رعايته ﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ
فَيُتَوَسَّسُ قَنُوطًا﴾ (فصلت ٤٩)؛ لأنه يقيس الأمور ويقدرها حسب
مجرياتها بالنسبة له، وحسب الأسباب التي بين يديه منها، غير ناظر
إلى قدرة الله، وإلى تعلق مصائر الأمور بمشيئته ، أما المؤمن الذي
يعمر الإيمان بالله قلبه، فإنه يتقبل في رضى واستسلام كل ما يقع له
من خير أو شر، فهو مع الصبر صابر، مترقب مواقع رحمة ربه من
قريب، لا يبيت في كل شدة إلا مع أمل في رحمة من ربه تكشف هذا
الضر الذي نزل به .

ولعل في موقف يعقوب (عليه السلام) عندما سمع كلمات
العتب واللوم والتقريع من أبنائه كلما جرى ذكر يوسف على
لسانه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ
الْهَالِكِينَ﴾ (يوسف ٨٥)، فرد عليهم بلهجة المؤمن الواثق الموصول
بربه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

(يوسف ٨٦) ، بل ودعا أبناءه إلى أن ينطلقوا هنا وهناك ليجثوا عن يوسف وأخيه ، وألا يدخل عليهم شيء من اليأس من روح الله ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف ٨٧)

وهكذا يقرر يعقوب (عليه السلام) قاعدة إيمانية هامة وهي أن (رحمة الله وخيره مرسله كنسيم الريح تلامس كل بشرة، وتمر على كل أنف لا تنتهي ولا تتوقف ولا تنقطع، ولكن العيب في الإنسان الذي يغلق الباب دونها ويأبى التعرض لنفحاتها، العيب في الأنف المزكوم الذي لا يتنفس ولا يشم ولا يتذوق ، العيب في الوقر على الآذان الصم والأكنة على القلوب العمي) (١)

• وفي قصة (يوسف عليه السلام) عبرة :

وقصة يوسف كلها هي قصة الأمل رغم اشتداد ظلمات الألم . فمحنة يوسف (عليه السلام) تابعت وتلاحقت بدءاً من حسد الأخوة والتآمر على القتل ، ثم ظلمة البئر ووحشته ، ثم ذل الرق والعبودية ، ثم محنة المراودة والالتهام بالعرض والشرف ، ثم هوان السجن والقيود ، ثم جاء الفرج عبر رؤيا بسيطة كانت بوابة الوصول إلى الملك والتمكين .

(١) يوسف أيها الصديق ص ٣٧٢ - د. محمد عاطف السقا

إن هذه القصة تحمل رسالة لكل مبتلى مضمونها : (إذا اقتحمت
جحافل اليأس قلبك؛ لتعصف ببنیان الإيمان؛ فتذكر حسن الظن بالله
ورجاء رحمته؛ ليغرس فسائل الأمل في داخلك، وروح العزم
والمثابرة في حياتك ، فترى من نافذة البلاء شعاع الرجاء يملأ
روحك ويقتل جراثيم اليأس) ، كما أنها تحمل بشرى لكل مكروب
فحواها : (قد يعتريك الذُّبول بعد طول البلاء ، وتنطفئ شمعة الأمل
ويذهب الضياء ، وتظنُّ أنَّك لن تقف من جديد ، ثم يُسعدك الله
ويعطيك ما تريد ، كأنك لم تحزن بالأمس ، وتقف كأنك لم تسقط
من اليأس ، وتُضيء كأنك لم تنطفئ من البأس ، فقط أحسن الظنَّ
بربك الوهاب ، تأتلك البشارات ، ومعها ما لذ وطاب) (١)

وهكذا كلما أصابني زكام اليأس وهبت على قلبي ريح القنوط
أتصفح هذه القصة الرائعة؛ فأجد برد اليقين يغمرني ونسيم السكينة
يملؤني ، وحسن الظن بربي يقويني ، واليقين بلطف الله عز وجل
يسليني ويشبتي ، والثقة بحكمة الله تمنحني الأمل والتفاؤل - حتى في
أحلك اللحظات .

(١) إن الله معنا ص ٢٦ - د. عايض المطيري

• لا تطفئ شمع الأمل :

✓ إذا ضاقت عليك السبل ، وبارت الحيل ، وتقطعت الجبال ،
وضاق الحال فاعلم أن الفرج قريب ، وأن اليسر حاصل ﴿فَإِنَّ
مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ (الشرح)

✓ حين يتسلل اليأس إلى قلبك لينفث سمومه .. فتذكر ثلاثة أمور :

١ - اليأس لا يقدم حلولاً ولا يصنع شيئاً سوى مزيد من الآلام
والمصاعب ، مما يسهم في تضخيم الصورة السلبية عن نفسك
وظروفك وأحوالك .

٢ - اليأس سم بطيء لروح الإنسان ، وإعصار مدمر لنشاط
الإنسان ، يحطم في النفس بواعث العمل ، ويوهي في الجسد دواعي
القوة ، يقعد بالهمم عن العمل ، ويشتت القلب بالقلق والألم ، ويقتل
فيه روح الأمل .

٣ - لحظات الشدائد والأزمات التي مررت بها من قبل ، والتي
ظننت لحظتها أنها ستدوم ولن تزول ، ثم بفضل الله (اللطيف)
تحولت المحنة إلى منحة ، والعسر إلى يسر ، والضيق إلى سعة ،
والشدة إلى فرج .. ثم تذكر أنك جرّبت لحظات اليأس في حياتك
قبل ذلك ، فهل رجعت منها إلا بالهموم والأحزان ودموع الأجفان ،
ووهن النفس وضعف الإيمان ، وغضب الرحمن ، وسعادة الشيطان ،
وفقدان السكينة ، والوقوع في بئر الحرمان !؟

✓ إذا تأخر الفرج وطال انتظار اليسر؛ فإياك و(الاستعجال) فهو الثغرة العظيمة التي تجرك إلى مستنقع اليأس والإحباط ، والتي يستغلها الشيطان ليوهمك بأن ربك عز وجل قد تخلى عنك! واعلم أن الركون إلى حمى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢١٦)، والاعتصام بأنوار ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء ١٩٢)، وترقب بشائر ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق ١)؛ يفتح لك أبواب الأمل ، ويقودك إلى واحة السكينة ، ويبعث لقلبك المضطرب رسائل طمأنة تعزز يقينه وتثبت إيمانه وتبدد هواجسه.

حدائق الأقدار

(الإيمان بالقدر حياة؛ لأنه يفتح لك في كل ظلمة شعاع ضياء، وفي كل عسرة باب رجاء، ولولا الرجاء لمات المريض من وهمه قبل أن يميته المرض، ولُقتل الجندي في الحرب من خوفه قبل أن يقتله عدوه، ولولا الرجاء ما كانت الحياة. ولو تُركت الأمور لاحتمالات العقل، وقوانين المادة لما استطعت أن تتنفس الهواء أو تشرب الماء خشية أن تكون فيه جرثومة داء، ولا ركبت سيارة لاحتمال أن تصطدم، ولما اطمأنت على مال لأنه قد يسرق) (١)

(الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله)

(١) صور وخواطر ص ١٢٥-١٢٦ بتصرف

• أهمية الإيمان بالقدر :

(إن الحياة الدنيوية مشوبة بالابتلاءات، مليئة بالمنغصات فكم يقاسي الإنسان في هذه الحياة ما يُضيق عليه عيشه، ويكدر خاطره، ويوحش أنسه، ويؤلم نفسه، وكم يتجرّع آلام السقم، ويذوق أوجاع الألم، وكم يُفجع بفقد حبيب، ورحيل صديق أو قريب، وكم تمتد إليه يد الظلم والجور، ويُسلَب بعض حقوقه، ومصالحه المشروعة، وكم تفزعه المخاوف، وتقلق سكينته هموم آت الزمان، وكم تحول الحوائل دون بلوغ آماله، وطموحاته، ورغائبه، ومطالبه، وكم يتمنى ويرجو، ولا تتحقق كل أمانيه، وجميع رجائه.

وبين شدة معاناة وقوع الآلام، وشدة امتناع تحقق الآمال يأتي الإيمان بالقدر ليجد المؤمن الموقن تحت ظله الظليل برد الاطمئنان، وراحة البال، وخفة البلاء، والتفاؤل بمجيء النعماء. فعنده إيمان جازم بأن الله تعالى هو خالق الحياة ومدبّرها، وأنه لن يخرج شيء عن تقديره وتدييره، وعلمه وحكمته(١)

(١) النور السائر في خطب المنابر (المجموعة الخامسة ص ١٣٠) بتصرف -

الشيخ عبد الله العواضي

• مفهوم القدر :

إن (القدر في حس الإنسان حقيقة هائلة، رهيبية مخوفة .. مرتقبة ومتقاة ! ذلك أنها تتصل بالقوة التي تدبر الكون وتصرف الحياة .. القوة التي تمنح وتمنع، وتُسعد وتُشقي، وتُفرح وتُحزن، وتأخذ وتُعطي، وتُعذب وتُرضي، وتُحرم وتُغدق، وتهب الحياة وتأخذ الحياة ! وتتصل في الوقت ذاته بالمجهول .. بالغيب المحجوب عن الأبصار وتتلفع بالكتمان ! لا تفصح عن سرها قبل أن تقع، وقد تقع وهي مع ذلك مغلفة بالأسرار ! شيء هائل رهيب .. لا جرم يشعر الإنسان إزاءه بالضآلة والانعسار!) (١)

فما هو القدر ؟

القدر معناه: (أنَّ هذا الكون وما فيه لا يسير جُزأفًا، ولا يقع شيء فيه اعتباطًا، بغير علم وتديير . وإنما علم الله - سبحانه - في الأزل الأشياء قبل وقوعها، وقدرها على ما تكون عليه، قدر زمانها ومكانها ومقدارها وشكلها، وخصائصها وصفاتها، وأحوالها. وسجل ذلك كله في كتاب مسطور، وإمام مبين، لم يفرط فيه من شيء، فكلُّ شيء في هذا الكون بتقديرٍ من الله، عَلِمَهُ اللهُ قبل أن يقع، وقدره قبل أن يقع، ويعلمه بعد أن يقع، ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في

(١) منهج الفن الإسلامي ص ٩٧ - محمد قطب

السماء. {إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: ٤٩]، {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: ٨]، {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: ٢] (١)

والإيمان بالقدر يُرى الإنسان أن كل شيء في الوجود إنما يسير وفق سنن ثابتة وحكمة عليا، فإن القلب مادام يوقن أن الله عز وجل بيده تصاريف الحياة ، ويبيده النفع والضرر، فلن يُفزع المستقبل وما يخبئه له من مفاجآت ، ولن يصاب عند فوات منفعة أو مصلحة بالألم والحسرات، ولن يجزع وينهار في أوقات المحن والأزمات .. ما أعظمه من زاد يمنح المؤمن الثقة في الله والتوكل عليه وحسن الظن به حتى في أحلك اللحظات !!

• بين مشيئة الرب ومشية العبد:

(قضت مشيئة الله الغالبة وعدله المطلق أن يكون الإنسان حراً مختاراً ، وأن تكون قوانينه محايدة ، فمن أخذ بها ثبت وأفلح، ومن صادمها صُدم وتأرجح ، ومن تَمَّ فإن الإنسان قادر على اختيار ما أودع الله فيه من إمكانات : الخير أو الشر، القوة أو الضعف، العلم أو الجهل، الصحة أو السقم، وفي ذات الوقت الإنسان لم يخرج عن مشيئة الله ؛ لأن هذه الأقدار هي من خلق الله ، وهو الذي شاء أن

(١) الإيمان بالقدر ص ٥ - د. يوسف القرضاوي

يكون الإنسان مريداً ، وقضى بأن يكون حراً مختاراً ، حتى تتم معركة الابتلاء ، فيستحق الجنة إن استقام وأطاع أو النار إن انحرف وعصى... كما أنه (سبحانه) جعل الأسباب مرتبطة بنتائجها إلا في حالات معينة ، كرسالة منه لخلقه حتى لا ينسوا حقيقة أن الأسباب لا تعمل بذاتها ، ففاعليتها مستمدة من مشيئة الله وقدرته وحكمته (١)

لذلك (فلا يجوز - اعتذاراً عن تكليف ، أو فراراً من واجب - أن تتحدث عن حول الله وطوله وقوته ومشيئته. إنما يحلو الكلام عن القضاء والقدر ، وعن سلطان الله المطلق ، عند مطالعة النتائج لا عند مباشرة الأسباب ، ذلك أنك عند مباشرتك للأسباب تؤدي رسالتك المتاحة لك ، والتي خلقت لها. فإذا جاءت النتائج كما تحب سررت بما أديت ، وحمدت الله الذي أعان ووفق ، وقد كان قديراً على التعويق والمنع .. وإذا تخلفت النتائج عما قدرت لأسباب خارجه عن طوقك - استكنت لمشيئة الله ، وسلمت له ما أَرَادَ ، ولم تجزع لهزيمة ، أو حرمان) (٢)

(١) حدائق الأقدار ص ١١ - ١٣ بتصرف - د. فؤاد البنا

(٢) هذا ديننا ص ٢٦ - ٢٧ - الشيخ محمد الغزالي

• القدر والأسئلة الحائرة :

إننا في حياتنا الدنيا قد نواجه الكثير من الأقدار المؤلمة التي لا ندرك حكمتها ، ولا نملك تفسيرًا لها ، ونسأل (لماذا اختطف الموت تلك الطفلة البريئة التي ليس لها ذنب، والتي كانت وحيدة أوبوها، المتعلقين بها، تتمثل فيها بالنسبة إليهما كل معاني الحياة؟ ولماذا اختطف الموت ذلك الرجل وهو العائل الوحيد لأسرته، لا موئل لهم غيره، وهم عديد من زوجة وأطفال وأقرباء؟ لماذا انهمت الفئة المؤمنة المخلصة التي تقاتل في سبيل الله، لا تبتغي سوى مرضاته، وتركت هزيمتها الميدان للباطل، يتنفس فيه وحده، ويعلو في الأرض، ويتمكن له السلطان؟ لماذا رزق هذا الرجل الصالح بولد مجرم يعيث فسادًا في الأرض، ويهلك الحرث والنسل؟ لماذا غرقت هذه السفينة واحترقت هذه الطائرة ووقع ذلك الزلزال المدمر العنيف؟ لماذا عاش هذا الطفل وقد مات أبواه في الحادثة وليس له من يرعاه؟ لماذا يظل هذا الشيخ حيًّا وقد هدَّه المرض والعجز والشيخوخة، ويموت ذلك الشاب الصاعد نحو القمة الممتلئ بالحياة؟ وألوف من الأسئلة وألوف من التعجبات) (١)

(١) منهج الفن الإسلامي ص ٩٩-١٠٠ بتصرف

ولا يملك العبد المؤمن أمام هذه الأسئلة إلا اليقين بحكمة الله التي لا يتطرق إليها خطأ ولا عبث، والعلم بأن ما يجري هو قدرُ الله الذي قد كُتِبَ على الخلق قبل وجودهم، وليس من خيارٍ أمام قضاء الله وقدره الحكيم إلا الرضا والتسليم.

قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد ٢٢).
ما أجمل حياة العبد، وما أسعدَ عيشه، وما أقرَّ عينه حين يعلم علمَ اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه، وأن كل شيءٍ في هذا الكون يجري بعلمِ الله وتقديره، فحينها ينشرح صدره، وتسكنُ نفسه، ويهدأُ باله، وتعظمُ ثقتهُ بربه، ويقوى توكله عليه.
إن الإيمان بالقضاء والقدر هو النجاة والفلاح والسعادة التي افتقدتها كثيرٌ من البائسين اليائسين الحائرين، بينما المؤمنُ يعلمُ يقيناً لا يُخالِجه شكٌّ أن الله - سبحانه وتعالى - قد قدر الأحداث كلها في هذا الكون خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، وعلمها - سبحانه وتعالى - بعلمه المُحيطِ الواسع، على الإجمالِ والتفصيلِ قبل وجودها، ثم أمرَ القلمَ أن يكتبَ في اللوح المحفوظ كلَّ شيءٍ كائناً، وكلَّ حدثٍ صائرٍ صغرُ أم كبر.

وما أجمل وصية النبي ﷺ الثمينة لابن عباسٍ (رضي الله عنهما): (واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، وعلى اجتمعوا على أن يضروك

بشيءٍ لم يُضْرُوكَ إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ،
وجفَّتِ الصُّحُفُ (١)

• الثمار اليانعة للإيمان بالقدر : (٢)

للإيمان بالقدر ثمرات إيمانية (عقدية) تعود على إيمان العبد بالزيادة، وعلى عقيدته بالثبات، ومنها ثمرات (أخلاقية) تعود على المؤمن به بحسن الخلق، وطيب النفس، وحسن المعشر، ولين العريكة، ومنها ثمرات (نفسية) تعود على صاحبها بالراحة، والطمأنينة والسكينة، وتُضفي عليه أمناً، وهدوءاً بال.

وسأركز في هذا المبحث على (الثمرات النفسية)؛ لارتباطها بموضوع الكتاب وهو تحقيق السعادة عبر الإيمان :-

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) واللفظ له، وأحمد (٢٦٦٩) وصححه الألباني (ت ١٤٢٠)

(٢) جمعت هذه الثمار من عدة كتب: (الإيمان بالقضاء والقدر - الشيخ محمد إبراهيم الحمد، الإيمان بالقدر - القرضاوي، حوادث الأقدار - د. فؤاد البنا)

✓ سكون القلب وطمأنينة النفس :

إن المؤمن الموقن بحكمة الله عز وجل في أقداره حينما تعصف به الشدائد، وتحيط به المكاره، وتضيق عنه أبوابُ الفرج فإنه لا ييأس ولا يجزع، بل يعلم أنها بقدر الله تعالى، وأن لله عز وجل فيها حكمًا، وغايات حميدة في أسبابها، وفي آثارها، وأن تلك البلايا إلى زوال مهما اشتد حبلها وطال لذا فهو ساكن القلب، مطمئن النفس، مرتاح البال، لا يفكر كثيرًا في احتمال الشر، ثم إن وقع تحمل ذلك بثبات وصبر؛ إن مرض لم يضاعف مرضه بوهمه، وإن نزل به مكروه قابله بجأش رابط فخفف حدته؛ فمن الحكمة ألا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقع الشر، والألم بحصول الشر، بل يسعد ما دامت أسباب الحزن بعيدة عنه، فإذا حدثت قابلها بشجاعة واعتدال.

✓ القناعة وعزة النفس :

المؤمن بالقدر يعلم أن رزقه مكتوب ، وأنه لن يموت حتى يستوفي رزقه، وأن الرزق لا يجلبه حرص حريص ، ولا يمنعه حسد حاسد ، وأن الخلق مهما حاولوا إيصال الرزق له، أو منعه عنه فلن يستطيعوا إلا بشيء قد كتبه الله، فينبعث بذلك إلى القناعة وعزة النفس، والإجمال في الطلب، وترك التكالب على الدنيا، والتحرر من رقِّ المخلوقين ، وقطع الطمع مما في أيديهم، والتوجه بالقلب إلى رب العالمين ، وهذا أساس فلاحه ورأس نجاحه.

✓ الرضا واليقين بالعوض:

ما يزال المؤمن يعتلي سُلَّم الإيمان بالقدر، ويتذوق آلام الصبر على الأقدار التي تكرهها نفسه، حتى يتحول المكروه إلى محبوب، ويستحيل المر إلى حلو.

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن ١١] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما): يَهْدِي قَلْبَهُ لِلْيَقِينِ فَيَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَقَالَ عَلْقَمَةُ: (هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ) (١)

وعلامة الرضا أمران: -

١ - عدم الندم على الماضي والحسرة على فوات ما يحبه:

فالعبد المؤمن لا يسلم نفسه فريسة للماضي وأحداثه، ولا يجتر آلامه، ولا يتحسر على ما فاته، ولا يعيش بشعار ليتني فعلت، ولتيتني تركت، بل شعاره دائماً (قدر الله وما شاء فعل)، لذا فهو يجتهد فيما ينفعه في الدين والدنيا، ويسأل ربه نجاح مقصده، ويستعينه على ذلك، كما قال النبي ﷺ: «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإذا أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ / ١٣٧-١٣٨

كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» (١)

٢- اليقين بأن الخيرة فيما اختاره الله:

متى علم المرء أن المقادير أمور مرسومة، وأنه لا راد لقضاء الله، وأن الله لا يقضي شيئاً إلا لحكمة هو يعلمها، اطمأن قلبه، وثبت فؤاده، وهدأ قلبه، وأراح نفسه من طلب تغيير المقادير النافذة، وداوى هواه الذي خالفته المقادير أو ما أذنت بنفاذه المقادير بقول الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢١٦)

فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة، لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد، وأنفع للعبد من الامتثال لأوامر الله، وإن شق عليه ذلك في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات. وسيرى المؤمن بعد انقشاع غبار الكرب عن آفاقه أن تدبير الله خير من تدبيره، وتقدير الله أحسن من تقديره، واختيار الله أفضل من اختياره.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤)

وما أجمل نصيحة ابن عَوْنٍ رحمه الله:

(ارْضَ بِقَضَاءِ اللَّهِ مِنْ عُسْرٍ وَيُسْرٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَقْلٌ لِهَمِّكَ، وَأَبْلَغُ
فِيمَا تَطْلُبُ مِنْ أَمْرِ آخِرَتِكَ، وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَبْدَ لَنْ يُصِيبَ حَقِيقَةَ الرِّضَا،
حَتَّى يَكُونَ رِضَاهُ عِنْدَ الْفَقْرِ وَالْبَلَاءِ، كَرِضَاهُ عِنْدَ الْغِنَى وَالرِّخَاءِ؛
كَيْفَ تَسْتَقْضِي اللَّهَ فِي أَمْرِكَ، ثُمَّ تَسْخَطُ إِنْ رَأَيْتَ قَضَاءً مُخَالَفًا
لِهَوَاكَ؟! وَلَعَلَّ مَا هَوَيْتَ مِنْ ذَلِكَ، لَوْ وَفَّقَ لَكَ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُكَ،
وَتَرَضَى قَضَاءَهُ إِذَا وَافَقَ هَوَاكَ، وَذَلِكَ لِقَلَّةِ عِلْمِكَ بِالْغَيْبِ؟! إِذَا كُنْتَ
كَذَلِكَ، مَا أَنْصَفْتَ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا أَصَبْتَ بَابَ الرِّضَا) (١)

✓ قوة الاحتمال ومحاربة اليأس :

المؤمنون بالقدر حقاً هم أقوى الناس نفوساً، وأكثرهم
احتمالاً، وأقلهم جزعاً عند ورود المصائب ؛ ذلك أن المؤمن يوقن
بأن ما قدره الله له نافذ لا محالة، وأن الخير فيما اختاره الله، وأن
الخير كله بيد الله، هذا الإيمان متى استقر في القلب واطمأنت به
النفوس، فإنه يدفع صاحبه إلى الابتعاد كل البعد عن الهم والضيق
واليأس والقنوط . فالذي لا يؤمن بالقدر يصيبه اليأس، ويدبُّ إلى
رُوعه القنوط؛ فإذا أصيب ببلية ظن أنها قاصمة ظهره، وإذا نزلت به
نازلة حسب أنها ملازمة له لن تبارحه ، أما المؤمن بالقدر فلا يعرف

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ج ٢ / ١٨٩

اليأس، ولا تراه إلا متفائلاً في جميع أحواله، منتظراً الفرج من ربه، عالمًا بأن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسراً فلا يتسلل إليه اليأس مهما اشتدت ظلمة المحن والشدائد؛ فإن اعتماد القلب على قدرة الله ولطفه يستأصل جراثيم اليأس ومنابت الكسل، ويشد ظهر الأمل الذي يمنحه السكينة والطمأنينة في أحلك الأوقات.

✓ الاعتدال حال السراء والضراء:

فالإيمان بالقدر يحمل على الاعتدال في سائر الأحوال؛ ذلك أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا يتقلب في أحوال عديدة؛ فقد يُبتلى بالفقر، وقد ينال نصيباً وافراً من الدنيا، وقد ينعم بالصحة، وقد يُبتلى بالأمراض، وقد ينال ولايةً وشهرةً وُعدَّ صيتاً، وقد يعقب ذلك عزلاً، وذُلٌّ، وخمولٌ ذكراً.

إن من آمن بالقدر حقيقة؛ لا تبطره النعمة، ولا تُقنطه المصيبة؛ فهو يتلقى المسارَّ والمحابَّ بقبول لها، وشكر لله عليها، واستعانة بها على أمور الدين والدنيا، فيحصل له من جرَّاء ذلك من الخيرات والبركات ما تتضاعف به مسراته، ويتلقى المكاره بالرضا، والاحتساب، والتحمل، والمقاومة لما يمكنه مقاومته، وتخفيف ما يمكنه تخفيفه، وبالصبر الجميل لما لا بد له منه، فيحصل له بسبب ذلك خيرات عظيمة تضمحل معها المكاره، وتحل محلها المسار والآمال الطيبة .

محطة النهاية

أخي القاريء ...

طُفنا سوياً عبر عشر نسَمات في رحلة شيقَة وسياحة ممتعة في رياض جنة الإيمان ، وعلمنا من خلال هذه النسَمات أنه ليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم معرفة الله والإيمان به والأُنس بقربه وإخلاص العبادة له .

ولكن حتى لا تزول أثر هذه النفحات بعد حين ، نحتاج إلى تجديدها بصفة مستمرة؛ كي يستمر مفعولها وتؤتي أكلها كل حين بإذن الله ، وليس هناك أعظم ولا أفضل من كتاب الله عز وجل فهو المعين الذي لا ينضب والزاد الذي لا ينفد .

ولكن لا بد ونحن نقرأ القرآن أن نقرأه من أجل تثبيت هذه المعرفة في القلوب وتقوية الصلة بالله؛ فتجد يد الله وراء كل حدث يحدث في الحياة وتجد أسماء الله وصفاته حاضرة في كل موقف وتجد فضله وكرمه وإحسانه في كل آية . (فالقرآن يوقع على أوتار النفس البشرية جميعها، ويدخل عليها من منافذها كلها، يوقع على أوتار الخوف والحذر والرجاء والطمأنينة، وعلى أوتار المهابة والجلال والأُنس والود، وعلى أوتار القهر والجبروت والرأفة والرحمة، وعلى أوتار النعمة والعذاب والنعمة والعطاء ويخاطب

وجدان الجمال بما في الكون والنفس من ألوان وأطياف كما يخاطب
وجدان المجهول بالغيب وما وراء الأستار من قدر الله) (١)

وعندها يمتلىء القلب بمشاعر الإجلال والحب، والخشية
والتقوى، والرغاء والثقة، والأنس والقرب، وبالحدرد واليقظة،
وبالشعور الدائم بوجود الله سبحانه وحضوره، بحيث لا يملك
القلب المؤمن أن ينسى، أو أن يغفل عن ذلك الوجود وعن هذا
الحضور لحظة في أي وضع وفي أي حال.

وعندها تستشعر النفس كما هو الأمر في الواقع أن لا ملجأ من
الله إلا إليه، وأن ليس مهرب منه ولا فوت، وأن ليس سواه عون ولا
سند، وأن ليس هناك وجود لشيء - قائم بذاته - إلا ذات الله
سبحانه، القوامة على جميع الخلائق الفانية.

وهذه هي الحياة الحقيقية .. الحياة مع الله .. فليهنأ بذلك من
رُزق ذلك ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ﴾ (يونس ٥٨)

اللهم كما رزقت عبدك الفقير الضعيف من نفحات جنة الإيمان
اجعل هذا الكتاب - بفضلك وكرمك - بوابة الوصول إلى جنة
الآخرة حيث الخلود الدائم والنعيم المقيم حيث ينادي الرحمن
عباده المتقين ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾
(الزخرف ٦٨)

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٩١-١٩٠ - سيد قطب

اللهم إني أبرأ إليك من الثقة إلا بك، ومن الأمل إلا فيك، ومن
التسليم إلا لك، ومن التفويض إلا إليك، ومن التوكل إلا عليك،
ومن الطلب إلا منك، ومن الرضا إلا عنك ومن الذل إلا في
طاعتك، ومن الصبر إلا على بابك، وأسألك أن تجعل الإخلاص
قرين عقيدتي، والشكر على نعمتك شعاري ودفثاري والنظر في
ملكوتك دأبي وديدني، والانتقاد لك شأنِي وشغلي، والخوف منك
أمني وإيماني، واللياذ بذكرك بهجتي وسروري .

أهم المراجع

- ١- الله أهل الشاء والمجد - د. ناصر الزهراني - مكتبة العبيكان - الرياض.
- ٢- أسماء الله الحسني آثارها وأسرارها- د. محمد بكر إسماعيل - دار المنار
- ٣- منهج القرآن في التربية - محمد شديد - دار التوزيع والنشر الإسلامية مصر .
- ٤- موسوعة فقه القلوب - محمد بن إبراهيم التويجري- بيت الأفكار الدولية الرياض .
- ٥- ركائز الإيمان - محمد قطب - دار الشروق - مصر.
- ٦- التفسير القرآني للقرآن- د. عبد الكريم الخطيب - دار الفكر العربي-مصر.
- ٧- علي بوابة الوحي- د. عائض القرني - مكتبة العبيكان الرياض
- ٨- حديث القلب- د. عبد المجيد البيانوني- مكتبة دار التوبة- جدة
- ٩- حقيقة العبودية- د.مجدي الهلالي- دار التوزيع والنشر - مصر

١٠- الإيمان والحياة - د. يوسف القرضاوي - مكتبة وهبة - مصر.

١١- مجموع خطب الشيخ عبد الرحمن السعدي - د. وليد العلي - دار البشائر الإسلامية - بيروت .

١٢- الوابل الصيب من الكلم الطيب - الإمام ابن القيم - تحقيق سيد إبراهيم - دار الحديث القاهرة.

١٣- من غراس السعادة - بدر الحسين - دار الفكر المعاصر بيروت

١٤- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان - الشيخ عبد الرحمن السعدي

١٥- صالح للاستعمال القلبي - د. محمد علي يوسف - المكتبة العصرية مصر.

١٦- الحوار والاستدلال في القرآن الكريم - د. خالد سليمان الياسين - دار الغوثاني للنشر بيروت.

١٧- مشكلة الشر ووجود الله - د. سامي عامري - مركز تكوين السعودية

١٨- من سنن الله في عباده - د. محمد سعيد البوطي - دار الفكر المعاصر بيروت.

- ١٩- صاحبك القرآن - د. محمد علي يوسف- دار اللؤلؤة
مصر.
- ٢٠- جمالية الدين- د. فريد الأنصاري- دار السلام مصر.
- ٢١- نظم القلائد في ترتيب كتاب الفوائد لابن القيم- رضوان
جامع رضوان - مكتبة الصحابة الشارقة.
- ٢٢- إسلامنا- السيد سابق - دار الفتح للإعلام العربي - مصر.
- ٢٣- رقائق القرآن - إبراهيم السكران- دار الحضارة للنشر
الرياض.
- ٢٤- العقيدة الإسلامية وأسسها - الشيخ عبد الرحمن الميداني- دار القلم
بيروت.
- ٢٥- المذهب من مدارج السالكين للإمام ابن القيم - إعداد
الشيخ صالح الشامي- دار القلم بيروت .
- ٢٦- يوسف أيها الصديق - د. محمد عاطف السقا- دار المكتبي
بيروت.
- ٢٧- منهج الفن الإسلامي- محمد قطب- دار الشروق .
- ٢٨- النور السائر في خطب المنابر- الشيخ عبد الله العواضي - بدون
دار نشر.
- ٢٩- الإيمان بالقدر- د. يوسف القرضاوي- مكتبة وهبة مصر.

٣٠- حدائق الأقدار- د. فؤاد البنا- منتدى الفكر الإسلامي
اليمن .

٣١- الإيمان بالقضاء والقدر- الشيخ محمد إبراهيم الحمد-
دار ابن خزيمة الرياض.

٣٢- لمحات في الثقافة الإسلامية - د. عمر عودة الخطيب -
مؤسسة الرسالة بيروت .

٣٣- مواقع إلكترونية :

شبكة الألوكة - ملتقى الخطباء - رابطة أدباء الشام - نسيم
الشام-بصائر .

المؤلف في سطور

- د. هاني محمود سليمان درغام .
 - من مواليد ١٩٨٠ .
 - بكالوريوس الطب والجراحة - جامعة القاهرة .
 - دبلوم التغذية بالمعهد العالي للصحة العامة بالأسكندرية .
 - من مؤلفاته وأعماله: -
- ١- متاع الغرور- دار طيبة حلوان (٢٠١٠)، وصدرت منه طبعة ثالثة (٢٠١٣).
 - ٢- رمضان.. واهًا لريح الجنة- دار طيبة حلوان (٢٠١٠).
 - ٣- قلب موصول بالله- دار طيبة حلوان (٢٠١١)، وصدر منه أربع طبعات .
 - ٤- وربك فكبّر(آية الكرسي سياحة في رحاب الكمال والجلال)- دار طيبة.
 - ٥- هكذا علمني رمضان- دار طيبة حلوان(٢٠١٣).
 - ٦- جنة الحياة- المكتبة العصرية بالأزهر (٢٠١٦) بتقديم د. محمد علي يوسف ، والأستاذ كريم الشاذلي .
 - ٧- علمتني المحن- دار البشير (٢٠١٧).

- ٨- من هدايات (جزء عم).. دار البشير (٢٠٢٢) قدم له الأستاذ الدكتور أحمد الشرقاوي ، وقد صدرت الطبعة الأولى (٢٠١٨) مع المكتبة العصرية تحت عنوان (جزء عم .. تدبر وهداية).
- ٩- من هدايات (جزء تبارك) - دار البشير (٢٠٢٢).
- ١٠- شارك ببحثين ضمن موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم بعنوان (الحياة في القرآن)، و(الخوف في القرآن)، والموسوعة صدرت في ٣٦ مجلد مؤخراً.
- ١١- شارك ضمن مشروع مقاصد سور القرآن الكريم والخاص بمركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي بالرياض (قيد الإعداد)
- ١٢- له العديد من المقالات على شبكة الألوكة .

فهرس الكتاب

- ٤..... هذا الكتاب
- ٦..... لماذا جنة الإيمان ؟
- ٨..... قصة هذا الكتاب
- ١٠..... تقديم د. محمد علي يوسف
- ١٣..... مقدمة
- ١٩..... إشراقة البداية
- ٢١..... هل يصنع الإيمان السعادة ؟
- ٢٣..... || البحث عن السعادة :
- ٢٥..... || لا سعادة بلا سكينه.. ولا سكينه بلا إيمان :
- ٢٦..... || ما الحياة بلا إيمان ؟
- ٢٨..... || الإيمان ينبوع السعادة :
- ٣٣..... ١- بستان المعرفة

- ٣٥ || معرفة الله .. الكثر المفقود :
- ٣٧ || عندما غابت شمس المعرفة :
- ٣٨ || غاية معرفة الله عز وجل :
- ٤٠ || معرفة الله أصل الفطرة :
- ٤١ || يقظة الفطرة عند الشدائد:
- ٤٣ || التفكير.. مفتاح المعرفة:
- ٤٧ || ٢- فردوس الأسماء الحسنى
- ٤٩ || من إشراقات الأسماء الحسنى :
- ٥٠ || من ثمرات الأسماء الحسنى :
- ٥١ || فادعوه بها :
- ٥٣ || وقفات مع بعض أسماء الله الحسنى :
- ٥٤ || ١- اسم الله (الرحمن الرحيم) :
- ٦١ || ٢- اسم الله (العزیز) :
- ٦٥ || ٣- اسم الله (الفتاح) :

- ٧١ ٣- شلالات التوبة
- ٧٣ هل فرحت بالمعصية؟! ..
- ٧٤ لا تقنطوا من رحمة الله : ..
- ٧٦ هذا مغتسل بارد وشراب : ..
- ٧٨ أركان التوبة : ..
- ٨١ ٤- وهبت نسيمات الأنس ..
- ٨٣ حقيقة الأنس بالله : ..
- ٨٥ قيمة الأنس بالله : ..
- ٨٦ مواطن الأنس بالله : ..
- ٨٧ ١- الصلاة معراج الأنس : ..
- ٩٠ ٢- وفي تلاوة القرآن لذة : ..
- ٩٦ ٣- الدعاء مصدر الطمأنينة : ..
- ٩٩ ٥- سلسيل الذكر ..
- ١٠١ حصن الذكر : ..

- ١٠٢ || الذكر طمأنينة القلب :
- ١٠٣ || الذكر المطلوب :
- ١٠٥ || من نفحات الذكر :
- ١٠٧ ٦- وانفجرت عين التوكل
- ١٠٩ || حاجة الإنسان إلي مولاه :
- ١١٠ || حقيقة التوكل :
- ١١١ || اطمئن.. فأنت في رعاية الوكيل سبحانه :
- ١١٣ || الرضا ثمرة التوكل :
- ١١٥ ٧- غرس شجرة المحبة
- ١١٧ || روح الحياة :
- ١١٩ || لهذا أحب ربي :
- ١٢٠ || يحبهم ويحبونه :
- ١٢٥ ٨- حتى لا تذبل زهرة الشكر
- ١٢٧ || وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها :

- ١٢٧ حقيقة الشكر : ١٢٧
- ١٢٩ الشكر دليل العبودية: ١٢٩
- ١٣٠ الرسول ﷺ قدوتنا في الشكر: ١٣٠
- ٩- اقتلع شجرة اليأس ١٣٥
- ١٣٧ لماذا اليأس؟ ١٣٧
- ١٣٨ الإيمان يولد الأمل : ١٣٨
- ١٣٩ واليأس توأم الكفر: ١٣٩
- ١٤٠ وفي قصة (يوسف عليه السلام) عبرة : ١٤٠
- ١٤٢ لا تُطفئ شمع الأمل : ١٤٢
- ١٠- حدائق الأقدار ١٤٥
- ١٤٧ أهمية الإيمان بالقدر : ١٤٧
- ١٤٨ مفهوم القدر : ١٤٨
- ١٤٩ بين مشيئة الرب ومشيئة العبد: ١٤٩
- ١٥١ القدر والأسئلة الحائرة : ١٥١

١٥٣	الثمار اليانعة للإيمان بالقدر :
١٥٩	محطة النهاية.
١٦٢	أهم المراجع.
١٦٦	المؤلف في سطور.
١٦٨	فهرس الكتاب.